تفسير سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾

ذَلِكَ الكِتَابُ: القرآن العظيم .

لا ريبَ فِيهِ: لا شك فى أنه حق من عند الله .

هُدًى: هادٍ من الضلالةِ .

للمتقين: الذين تجنبوا المعاصي وأدوا الفرائض فوقوا أنفسهم العذاب.

لا ريب فى أن القرآن كتاب هدي وإرشادٍ ، ولكن المنتفع بهدايته هو الذى يكون جادًا حق الجدية ، بالنسبة لمعرفة الهداية ، والذي مازال يشغل هذا الأمر باله ، ويختلج في صدره ليل نهار ، إن بذرة ((الطلب الصادق)) التي تنبت في أرض الفطرة ، هي ذاتها تشكل نقطة البداية للظفر بالمطلوب وإدراكه ، إن ((الطلب الصادق)) و ((الإدراك الحقيقي)) ليسا ، سوى مرحلتين ، متقدمةٍ ومتأخرةٍ ، لمسيرةٍ واحدةٍ ، إن ذلك يبدو وكأنك المرء يتصفح صفحاتٍ مطويةٍ من فطرته هو بالذات ؛ إذ طالما يريد الإنسان لذلك إرادةً صادقةً ، فلا يلبث أن تشاركه الطبيعة كلها ، وتنسجم معه في سيره ، وتأخذ نصرة الله بيده ، وبالتالي هو يبدأ يتلقى إجابةً محددةً واضحةً لنداء فطرته الغامض . وإن انبعاث ((الطلب الصادق)) فى داخل أحدٍ من الناس ، يعنى محاولةً تتجه لمشاهدة العالم الباطني وراء هذا العالم الظاهري ، وعندما تنتهي هذه المحاولة إلى مرحلة الإدراك تتحول إلى ((الإيمان بالغيب)) ، فالحالة النفسية التي تتمثل بادئ بدءٍ ، فى اضطرار المرء إلى أن يُلقي أمام ((حقيقةٍ عليا)) ، هي نفسها ستبرز في المرحلة التالية

في صورة تحوله إلى « مقيم الصلاة لله » والعاطفة التي تكون في البداية عبارةً عن طموح الرجل إلى أن يقف وجوده لخدمة « الخير الأعلى » ، هي ذاتها ستكون وقد تحولت إلى الإنفاق والتضحية ، في سبيل الله ، بكل ما يملك ، وبكل ما يحرص عليه ، والحيرة التي قد تخيّم على أحدٍ ، وهو يحاول البحث عن العاقبة الأخيرة أو المصير النهائي ، لما يجرى على مسرح الحياة الإنسانية من أعمالٍ وأحداثٍ ، إنها بدورها لا تلبث أن تنقشع وتزول تلقائيًا ، عقب تحقق يقينه بالآخرة ، وما يكون فيها من الحساب والجزاء الوفاق .

إن إدراك الحق يعني بلوغ وعي الإنسان إلى مستوىً موازٍ للحقيقة العليا ، والذين يوفَّقون لإدراك الحق على هذا النحو ، يتحررون من أسر جميع أنواع العقد النفسية ، وبالتالي ينظرون إلى الحق كما هو بصورته المجردة، ولذا فإنهم سرعان ما يعرفون الحق أينما وُجد، ويُلبون نداء الداعي إليه، كائناً من كان من عباد الله،ولا يحول أبداً أي شيءٍ من الجمود، أو تقليد الآباء والجدود، وجدران التعصب،دون اعترافهم بالحق .. وإن الذين يتمتعون بهذه الخصائص، ينسجمون مع نظام الله الذي يسير عليه هذا الكون كله، ويتكيف معهم، ويُكتب لهم التوفيق لاتباع ذلك الطريق السوي الذي يؤدي - في نهاية المطاف - إلى نعيم الآخرة الأبدي ، وأولئك هم المفلحون .

وإنما يصل إلى الحق من كان ينشده ويبحث عنه، ومن كان يبحث عنه فلابُدَّ أن يصل إليه ويدركه، فإنه قد تذوب هنا - في طريق الحق - الفجوات والفواصل كلها، بين البحث عنه ونِشدانه، وبين الوصول إليه وإدراكه .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧ ﴾

خَتَمَ الله: طبع الله .

وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ : انصرفوا إليهم وانفردوا بهم.

وَيَمُدُّهُم: يزيدهم أو يميلهم .

طُغْيَانِهِمْ: مجاوزاتهم الحد وغلوهم في الكفر.

يَعْمَهُون: يعمون عن الرشد أو يتحيرون .

إن أحداً منا، لو أغمض عينيه لا يبصر الشمس وهي طالعة في كبد السماء، كما أنه لو حشا أذنيه قطناً، لا يسمع شيئاً مما يرتفع في الخارج من صوتٍ ونداءٍ، هكذا هو الحال بالنسبة إلى دعوة الحق، إن دعوة الحق مهما كانت صريحةً وواضحةً في حد ذاتها، إنها لا تكاد تكون مفهومةً، أو تحظى بالقبول عند أحدٍ من الناس، إلا إذا فتح لها أبواب قلبه، فإن من أغلق أبواب قلبه، لا يُحرك سواكنه نداء الله الصامت، المتفجر من أرجاء الوجود كله، ولا عملية الإعلام والإنذار، التي يقوم بها الرسول المبلغ عن الله عليه الصلاة والسلام.

إن دعوة الحق حينما تقوم بصورتها النقية الخالصة من كل شوبٍ تكون قائمةً على أمتن أساسٍ من الحقيقة والأصالة، وعلى أبلغ ما يكون من الانسجام مع الفطرة الإنسانية، الأمر الذي لا يمكن معه أن يتعذر على أحدٍ إدراك كنهها، وفهم نوعيتها، إذْ ما من أحد يُقبِل عليها بذهنٍ مفتوحٍ، ويتأمل فيها بنظرةٍ موضوعيةٍ وطويةٍ فطرية، إلا وجد قلبه مشدوداً إلى الاعتراف بأنها عين الحق ، ولكن الدعوة عندئذٍ تقف أمامها عقبة كأداء تعوقها عن الحركة، تتمثل في الهيكل الاجتماعي السائد حولها ، والذي يتشكل مستمداً عناصر تكوينه الخاصة من رواسب القرون المتطاولة ، وفي ظل هذا الهيكل تتكون مناصب ورتب دينية أو غير دينية، يحتلها عدد من أفراد المجتمع، يتمتعون بسلطانٍ أي سلطانٍ ، كما تنتشر صور من العزة والشهرة، يُعدّ المتمتعون بها أعاظم رجال العصر، وكذلك تنشأ وتروج ألوان من الحرف والصناعات، وأساليب لكسب المنافع والمصالح تسمح لعددٍ غير قليلٍ من الناس، أن يعيشوا حياةَ أمنٍ ورخاءٍ .

وفي مثل هذه الظروف والملابسات - التي وصفناها آنفاً - عندما يقيم الله عبداً من

عباده، من إحدى النواحي المغمورة مبلغاً عنه وداعيةً إلى مرضاته، يصبح مصدر قلق عظيم لأمثال أولئك الناس؛ إذْ يبدو لهم أنه سيكدّر صفو حياتهم ، ويقضي على كيانهم!

وثمة شيئان ربما يتسببان في الحيلولة بينهم وبين أن يفهموا رسالة الحق - بالرغم من كل ما تتمتع به من الصدق والأصالة - فهماً صحيحاً ، أولهما : ((الكبر والخيلاَء))، والثاني: ((حب الدنيا والانغماس في لذاتها)) ، إن الذين يشغلون مناصب عليا ويتولون مراكز مرموقة في الهيكل الاجتماعي السائد، يعدّون نوعاً من الانتقاص من شأنهم أن يؤ منوا بِـ ((رجلٍ صغيرٍ أو ضئيل الشأن)) ؛ ويستتبع هذا الشعور إثارة نفسية العُجب في دخائل نفوسهم، مما يؤدي بهم إلى اتخاذ موقف الاستخفاف والازدراء تجاه شخصية الداعي، وبالتالي إنكار دعوته ورفضها رفضاً باتاً ، وكذلك المنافع الدنيوية هي الأخرى تقف بمثابة حجر عثرةٍ دون قبول الحق، وتلك هي الحالة الحاجزة عن اعتناق الحق، التي عُبر عنها في القرآن بِـ ((الختم على القلوب)) وهي تتمثل في الذين يعُدّون موضوع دعوة الحق مما لا يؤبه له ، ولا يأخذونه مأخذ الجد، وفي الذين استشرى في نفوسهم داء العُجب والاستكبار، واستعبدتهم الشهوات وزينة الحياة الدنيا، فإن أذهانهم تندمج - تلقائياً - تحت حجبٍ كثافٍ تتراكم عليها بشكل غير ملموسٍ، والتي بدورها لا تسمح بأن يجد نورُ الحق مدخلاً أو طريقاً للنفوذ إلى أذهان هؤلاء ، إن الإنسان إذا ما تحركت في داخله نفسية العناد بالنسبة لأمرٍ ما، واستحكمت حلقاتها، بحكم الامتداد الزمني، فإنه يكاد يكون من المستحيل عليه أن يفهم أو يقتنع بمعقولية ذلك الأمر، مهما تضافرت الأدلة القوية الواضحة على التأكيد بصحته وصدقه.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ

ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

خَتَمَ الله: طبع الله.

وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ: انصرفوا اليهم وانفردوا بهم.

وَيَمُدُّهُم: يزيدهم أو يميلهم .

طُغْيَانِهِمْ: مجاوزاتهم الحد وغلوهم في الكفر.

يَعْمَهُون: يعمون عن الرشد أو يتحيرون .

إن الذين تسيطر عليهم المصالح المادية في الحياة، ولا يهمهم شيء سواها، يعدّون الرجل من السفاهة بمكان؛ إذا هو نذر وجوده كله في سبيل خدمة الحق، على أن أمثال هؤلاء لا يكونون مخلصين - في حقيقة الأمر - إلا لمنافعهم الدُنيَوية العاجلة، غير أنهم - مع ذلك - قد يقيمون علاقةً ظاهريةً بالحق أيضاً، ويعدون هذا عقلاً وحصافةً؛ ظناً منهم أنهم يتمكنون - عن هذا الطريق - من الحفاظ على حظوظهم الدنيوية، وقد يمكنهم - علاوةً على ذلك - أن يحصلوا على وسام شرفٍ لخدمة الحق أيضاً .. إلا أن هذا نوع من الخداع للنفس ، إذ إن كل زمن يقضونه يكشف عن اتساع الفجوة بينهم وبين ((الدين الحق))؛ وزيادة اقترابهم من ((الدين النفعي)) ، الذي يدينون به، وهكذا يتراكم مرضهم النفاقي يوماً بعد يوم .. وعندما يرى هؤلاء المسلمين الصادقين في إسلامهم، يُخيل إليهم أنهم إنما يُلقون بأنفسهم إلى التهلكة والضياع، حيث - طبقاً لرؤيتهم النفعية المادية البحتة - لا داعي لمثل هذا التفاني والفداء، ولا طائل تحته،

وبالمقابل هم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وأنهم قد اتخذوا من الأمر موقف البناء والإصلاح، وذلك لأنهم يبدو لهم أن هذا الموقف المزدوج الذي تبنَوه من شأنه أن يمكن المرء من استكمال مسيرته بكامل الهدوء وتمام النجاح، وبدون أن يستعدى أحداً من الناس ضدّه، أو أن يتورط في نزاعٍ ما مع الآخرين ، ولكن ذلك ليس إلا لقلة الوعي وانحطاط في مستوى الشعور، إذ لو فَكَّر هؤلاء في القضية بعمقٍ، وأمعنوا النظر فيها لتبين لهم أن «الإصلاح» حقيقةً، إنما يتمثل في أن يصير الناس كلهم عباداً لله وحده، مخلصين له الدين كله، وعلى العكس من ذلك، فإن عملية «الإفساد» تتمثل في وضع العقبات والعراقيل في طريق الحركة التي أقيمت من أجل تصحيح صلة العباد بالله رب العالمين ، إن تجارتهم هذه - حقيقةً - تجارة بائرة، وليست رابحة كما تبدو في ظاهر أمرها، ذاك لأنهم يتركون «الحق الخالص الأصيل» ويكسبون «الحق الزائف والمغشوش»، الذي لن يغني عن أحدٍ شيئاً ، إن اتخاذ الإنسان موقفاً غايةً في الحذر واليقظة، تجاه ما يتعلق بأموره الدنيوية، وبالمقابل اكتفاءه بآمالٍ عفويةٍ وتوقعاتٍ عابرةٍ سريعةٍ بالنسبة إلى قضايا الآخرة؛ بمثابة افتراء الكذب على الله تعالى، والذين يفعلون ذلك، سوف يعلمون أن الحياة الكاذبة الخادعة هذه ستجعلهم يستحقون عند الله عذاباً أليماً، وليس أي شيءٍ سواه .

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

مَثَلُهُمْ: حالهم العجيبة . أو صفتهم .

اسْتَوْقَدَ نَارا: أوقدوها .

بُكْم: خرس عن النطق بالحق.

كَصَيِّب: الصيب : المطر النازل أو السحاب .

يَخْطَفُ أَبْصَارَهُم: يستلبها ويذهب بها بسرعة .

قَامُوا: وقفوا وثبتوا في أماكنهم متحيرين .

إذا نحن دخلنا حجرةً مظلمةً،وفيها من الأشياء ما هو أبيض اللون،وما هو أسود اللون، فما دام الظلام سائداً لا يمكننا التمييز بين أسود الأشياء وأبيضها، ولكن ما هي إلا أن نشعل المصباح حتى يتبين لنا الشيء الأسود من الشيء الأبيض من دونما لبسٍ واشتباهٍ، هذا هو الحال بالنسبة للدعوة التي يبعث بها الله أنبياءه، بحيث إنها تمثل إشراقة النور الإلهي الذي ينبثق لكي يمزق الستائر الكثيفة المسدولة على الهداية والضلالة، وبالتالي يتضح - في ضوئه - ما هو العمل الصالح، المطلوب فعله، وما جزاؤه، وما العمل السيئ ، المطلوب تركه، وما هو عقابه؛ كل ذلك يتضح اتضاحاً جلياً لا غموض فيه ولا خفاء .. إلا أن الذين كانوا قبلئذٍ، قد أخضعوا الحق لأهوائهم، بدلاً من أن يجعلوا من أنفسهم أتباعاً للحق، يفاجأون بهلعٍ واضطرابٍ من هذا الوضع المنقلب، ويتحرك ما قد استكن في دخائلهم من الحقد والحسد، والكبر والخيلاء، ويحدق بهم من كل جانبٍ، وما إن ينظروا إلى وجوههم في «المرآة الإلهية» حتى تنعكس عليها ما يكمن في صدورهم من نفسيّاتٍ سلبيةٍ، وتبلغ عصبياتهم الداخلية من السيطرة والاستحواذ على مداركهم مبلغاً كبيراً - بالرغم مما يتمتعون به من الأعين والآذان والألسنة - فيصير حالهم وكأنهم عمي، وصم، وبكم؛ إذن فهم لا يستطيعون أن يسمعوا نداءً لأي مناد، ولا أن يستجيبوا لندائه، كما لا يمكنهم أن يهتدوا بأي نوعٍ من الآيات والمعالم التي تهدي إلى صراط الحق؛ مهما كانت تلك المعالم جليةً وبينةً في حد ذاتها، ولقد كان من الجدير بهم أن يأخذوا أنفسهم بتدبر النداء ، ويتأملوا فيه، ولكنهم - بدلاً من ذلك -

حاولوا الفرار والتخلص منه، عن طريق عدم الإصغاء إليه ألبتة، واتخاذ موقف اللا مبالاة نحوه، وعدم إعارته أهمية تُذكر .

وكذلك ثمة نفسية أخرى، ربما تحول دون اعتناق الحق، وهي نفسية الخوف ، إن المطر نعمة من الله جد عظيمةٍ ، ولكن المطر إذ ينزل يحمل معه - طبعاً - صاعقة الرعد وخطفة البرق أيضاً، ما يجعل الجبناء وضعفاء القلوب من الناس تشخص أبصارهم وترتعد فرائصهم خوفاً وفزعاً منه، وهكذا فإن دعوة الحق حين تقوم من قِبَل الله تعالى، فإنها إذ تفتح - من جهةٍ - إمكانياتٍ عظيمةً لسعادة الناس وفلاحهم في كل مجالٍ من مجالات الحياة، فهي - من جهةٍ أخرى - تنطوي أيضاً على مخاطر مؤقتةٍ؛ منها - على سبيل المثال لا الحصر - أن الانضمام إلى الدعوة يستتبع ضرورة القضاء على الأنانية والاستبداد، كما ويستلزم إلغاء خريطة الحياة الجاهزة، ويطالب بإعادة صياغتها على أسسٍ جديدةٍ، ويدعو إلى المواجهة والصمود أمام وطأة مسائل ومشكلاتٍ حادةٍ، تتمخض عن الاصطدام بالبنيان التقليدي السائد، والتركيز على الحقائق الصادقة، مكان الاعتماد على الآمال والأماني الكاذبة، فيما يتصل بقضية الآخرة هذه وأمثالها، مما يجعلهم يُحجمون تارةً، ويتقدمون بعض الخطوات تارةً أخرى،ولكن مع شيءٍ كثيرٍ من الحذر والتذبذب ، غير أن هذه الخطوات المصحوبة بالحذر والاحتياط لن تغني عنهم شيئاً ، فإنهم بنكوصهم عن النداء الإلهي، وعدم تلبيته عن رضا قلبي وطواعيةٍ داخلية، إنما يجعلون أنفسهم يستحقون العذاب الشديد عند الله تعالى .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا

ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾

الأَرْضَ فِرَاشاً: بساطا ووطاء للاستقرار عليها.

أَندَاداً: أمثالاً من الأوثان تعبدونها .

وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم: أحضروا آلهتكم أو نصراءكم .

مُتَشَابِها: في اللون والمنظر لا في الطعم .

إن الله هو خالق الإنسان، وهو وحده خالق لجميع ما في السموات وما في الأرض، ولقد أوجد الحق سبحانه وتعالى هذا الكون كله بغايةٍ من الحكمة، وسيّره على نظامٍ متناهٍ في الإحكام والإتقان، ثم هو لم يزل قائماً على تدبير أمره ورعاية شئونه كل حينٍ وآنٍ ، ولذا فإن الموقف الوحيد الذي ينبغي أن يتخذه الإنسان نحو وجود الله، هو أن يؤمن ويرضى به خالقاً، ومالكاً، ورازقاً، ولا يشرك به شيئاً، وأن يجعل الله غاية ما يبغيه ويطمح إليه في الحياة، حتى يكون الله عنده بمثابة كل شيءٍ، ولكن بما أن الله عز وجل لا تدركه الأبصار، فإن الإنسان قد يخدعه بريق شيءٍ من الأشياء المشاهَدة المحسوسة فيأخذ عليه منافذ الإدراك ، لدرجة أنه يرفعه إلى مقام ((الألوهية))، ويتخذ من أحد المخلوقات نداً لله بصفةٍ جزئيةٍ أو كليةٍ، مع إطلاق اسم الإله عليه أحياناً، أو بدون أن يُسميه باسم الإله أحياناً أخرى.

وتلك هي ظاهرة انحراف الإنسان وضلاله الجذري في كل العصور والأزمنة، وإن رسالة النبي المرسل من عند الله تتمثل في دعوة الإنسان إلى أن يتخلى عن كل شيءٍ أو شخصٍ رفعه إلى درجة العظمة الإلهية، وتوجيهه إلى أن يُفرد الله الواحد الأحد بكل

صفات العظمة والكبرياء والجبروت ليس إلا، إن قيام الدعوة لتوجيه البشر إلى التوحيد الخالص وإخلاص العبادة والعبودية لله وحده، يكون دائماً شديد الوطأة على أولئك الذين علقت قلوبهم بغير الله فاتخذوهم آلهة ، وإن علاقة أمثال هؤلاء الناس بآلهتهم المصطنعة (المزعومة)، بما تكون قد بلغت من التأصل والاستشراء في أعماقهم لدرجة أنهم لا يستطيعون الانفكاك عن أسرها، فمن أجل ذلك لا يستطيعون أن يستيقنوا أن هذه الآلهة كلها باطلة، وليست على شيءٍ من الحقيقة، وأن رصيد الحقيقة كله، إنما تتمتع به تلك الرسالة الإلهية التي يتم إعلانها على لسان من اختاره الله لهذه الرسالة .

إن هذه الرسالة الإلهية،هي في صميمها ذات شأنٍ ؛ إذ إن ما تتميز به من الأسلوب المعجز؛غير القابل للتقليد والمحاكاة،وما تستند إليه من البراهين والأدلة القاطعة التي لا تُدحض،كل ذلك يدل دلالة صارخةً على أن مصدرها هو الله تبارك وتعالى،وبالتالي فإن الذين جحدوا بها - بالرغم من ذلك كله - ليس لهم أن يجدوا في كون الله غير جهنم ملجأ ومستقرا ، أما الذين أدركوا كلام الله وآمنوا به،فكأنهم قد استطاعوا مشاهدة عالم الغد في عالم اليوم،وأولئك هم الذين يدخلون جنات الفردوس في الآخرة،وهم فيها خالدون .

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ

ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء: قصد إلى خلقها بإرادته قصدا سويا بلا صارف عنه .

فَسَوَّاهُن: أتمهن وقومهن وأحكمهن .

إن أول ما يجب على العبد - أي عبدٍ - نحو الله ربه، هو أن يأخذ نفسه بإيفاء ((عهد العبودية)) ؛ ذلك الذي تم التعاقد عليه بين الخالق والمخلوق منذ بدء الخليقة، ثم عليه ثانياً، أن يكون في حياته مع الآخرين من بني جنسه، محافظاً على الروابط التي أمر الله بها أن توصل وتُقوى، والواجب الثالث هو أن يناصر رسالة الحق، فيما إذا بعث الله بها أحد عباده، وكلفه بتبليغها للناس كافةً، أو - على أقل تقديرٍ - عليه ألا يُعرقل مسيرتها عن طريق تنفير الناس منها؛ متخذاً أساليب التمويه وإثارة الشبهات ضدها، وما إلى ذلك، إذ إن الدعوة إلى الحق، هي في حقيقة أمرها، محاولة تتوخى إعادة الناس إلى الوضع الفطري السليم الذي فطرهم الله عليه ، ولذا فإن الشخص الذي يصّد الناس عنها فإنما يرتكب جريمة الإفساد والتخريب في الأرض .

إن فضل الله المتمثل في إخراج الإنسان من العدم إلى حيز الوجود، لهو فضل كبير لدرجة أنه لا يسع الإنسان ولا ينبغي له بإزائه إلا أن يلقي بتمام وجوده بين يدي الله، ثم إن الله سبحانه وتعالى - مع ذلك - لم يقف من شأن الإنسان - بعد أن خلقه - موقف الإهمال ، بل اهتم به أيما اهتمامٍ ؛ حيث أسكنه على أرضٍ كانت قد صُنعت على وجهٍ أقصى ما يكون من التلاؤم مع حاجاته ومقتضيات حياته، ثم إن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد، بل يتجاوزه إلى ما هو أبعد من ذلك بكثيرٍ؛ إن أخطر الأمور وأشدها حساسيةً بالنسبة للإنسان هو كونُه في كل لحظةٍ على شفا حفرة الموت؛ إذْ هو لا يدري ألبتة متى ستُفاجئه منيّتُه، وبالتالي سوف يقف أمام مالك الكون كله، ليحاسبه على ما أتى في حياته الدنيا من عملٍ، إن هذا كله يقتضي أن يعيش الإنسان على أساس ذكره

تعالى الدائم وطاعته المستمرة لله، وأن يظل عبداً خاضعاً مطيعاً له سبحانه طيلة حياته.

وثمة سؤال يفرض نفسه وهو: ما الذي يدفع الكثيرين من الناس إلى رفض «الدعوة النبوية»، بحيث إنهم لا يكادون يقبلونها؛ بالرغم من كونها غايةً في الوضوح والإقناع، ومدعمةً بدلائل قاطعةٍ لا تدحض ؟! إن السبب الأكبر في ذلك هو «نزعة الجدال بالباطل القائم على تمحل النقائص دونما مبرر»، إن المرء إذا كان يفتقد روح الاعتبار والتذكر، ويعوزه السداد الفكري، فإنه لا يأخذ أي شيءٍ بمأخذٍ جدّي، حيث إن شخصاً كهذا، إذا ما عُرض عليه أيّ دليلٍ أو برهانٍ يثبت أحقية الدعوة، فإنه لا يلبث أن يزعم أن هذه الدعوة ليس من شأنها أن تدخل في حيز المعقول، حتى تستحق الإذعان والقبول ، إذ إنها لو كانت دعوةً معقولةً - على حد زعمه - لم تكن لتنطوي على سخافاتٍ وترهات من هذا النوع ، غير أن الذين يتمتعون بسداد الفكر والجدّية، والذين ينظرون إلى الأمور من وجهة نظر الاعتبار والتذكر، فلا يعوقهم أبداً أي عائقٍ عن معرفة الحق وقبوله ؛ وإن كان الحق قد جاءهم في صورة مثل بعوضةٍ فما فوقها.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

وَيَسْفِكُ الدِّمَاء: يريقها عدوانا وظلما .

نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ: ننزهك من كل سوء مثنين عليك.

وَنُقَدِّسُ لَكَ: نمجدك ونطهر ذكرك عما لا يليق بعظمتك .

« الخليفة » في اللغة: هو من يخلف غيره أو ينوب عنه، وقد شاع إطلاق هذا اللفظ على الحكام والسلاطين، الذين كانوا يجلسون على كرسي الحكم على التوالي؛ الواحد تلو الآخر، ومن هنا، فقد صار لفظ الخليفة - من حيث المفهوم الاستعمالي الشائع - مرادفاً لمن يتمتع بالسلطة والسيادة إطلاقاً .

إن الله عز وجل، حين خلق الإنسان؛ قرر أيضاً أن يسكنه الأرض بوصفه كائناً يتمتع بالسلطة والسيادة، وحرية الإرادة والتصرف في ذاته وفي ما حوله؛ الأمر الذي جعل الملائكة يتساءلون حذراً مما ستسببه حرية الإنسان ، وما مُنح غيرَ ذلك من القدرات والصلاحيات، في انحرافه عن الجادة والخط المستقيم، وبالتالي سوف يتجه نحو الإفساد في الأرض، بدلاً من الإعمار، وإراقة الدماء بغير الحق، بدلاً من التمسك بالحق والعدل ؟! إن حذر الملائكة هذا لم يكن حذراً باطلاً، كما أن الله سبحانه وتعالى لم يكن على غير علمٍ بهذا الاحتمال ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤ ﴾ [الملك:١٤] ، ولكن الشيء الذي كان موضع عناية الله عز وجل؛ والذي لم يتفطن له الملائكة أول الأمر، هو أنه إنْ كان هناك كثيرون من بني الإنسان، من سيُسيئون استخدام حريتهم وقدرتهم؛ فيضلون وينحرفون عن الطريق السوي، فإنه سيكون هناك كذلك، عدد ملحوظ يشتمل على أولئك الأفراد الذين يعرفون أقدار أنفسهم ومقام ربهم حق المعرفة، ولا يحيدون عن سبيل الحق برغم حريتهم وقدراتهم على الانحراف، ويسلكون طوعاً وبإرادتهم الحُرة مسلك الطاعة لله، وتفويض الأمر كله إليه بدون أي ضغطٍ خارجيٍ، بيد أن تعداد هذا الصنف الثاني من الناس يكون ضئيلاً نسبياً، إلاّ أن شأنهم يكون كشأن حبوب الزرع؛ إن ما تحمله سنابل الزرع من التبْن يكون مقداره دائماً أكبر بكثيرٍ مما تحمل من الحبوب، إلا أن الحبوب، رغم قلتها وضآلة مقدارها، تكون ثمينةً وذات قيمةٍ لدرجة أنه - من أجل الحصول عليها - يُفسح المجالُ لكميّاتٍ متراكمةٍ من التبن والخشَب أيضاً لكي تنمو وتترعرع معها ..

وقد أحضر الله جل شأنه، بين يدي آدم، جميع أفراد ذريته جملةً واحدةً، ثم توجه سبحانه إلى الملائكة قائلاً : انظروا! هؤلاء بنو آدم ! فهل تخبرونني عن شأن كل فردٍ من هؤلاء على حدةٍ ؟ من هو ؟ أى ما اسمه ؟ وما هي صفاته وخصوصياته المميزة له عمن سواه ؟ وظل الملائكة عاجزين عن تقديم أيّ جوابٍ عن السؤال الموجه إليهم، لعدم معرفتهم بذلك ، وقد زوّد الله آدم بعلم أسمائهم كلها، أو بكلمةٍ أخرى، أَطْلَعَه على شخصياتهم ومزايا ذواتهم، ثم قال له أن يقوم بتعريفهم إلى الملائكة، وعندما عرّف آدم بهم جميعاً، علموا أنه مع كون ذريّة آدم، مشتملةً على المجرمين والمفسدين في الأرض، فإنها سيكون فيها أنبياء ورسل كرام، وأناس أتقياء صالحون؛ يستحقون عند الله درجاتٍ عاليةٍ وجنات النعيم ... إلخ.

إن أكبر جريمةٍ يرتكبها الإنسان، بعد الكفر والجحود برب العالمين، هو إثارة الفساد في الأرض، وإراقة الدماء بغير الحق، والشأن أنه لا يحل لأي فردٍ أو جماعةٍ أبداً، أن تقوم بفعل شيءٍ يؤدي إلى زعزعة النظام الفطري الذي قرره الله تعالى في الأرض، حيث يقتل الإنسان أخاه الإنسان، إن أيا فعلٍ من هذا القبيل يستثير الغضب الإلهي، ويُبعد الإنسان من رحمة الله تعالى ، إن الحفاظ على النظام المقرر من قِبل الله تعالى، واستمراره في الأرض هو إصلاحها، وأما الإخلال بنظام الأرض الفطري فهو الإفساد فيها .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ

هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

اسْجُدُوا لِآدَمَ: أخضعوا له أو سجود تحية وتعظيم .

رَغَدا: أكلاً واسعًا أو هنيئًا لا عناء فيه .

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ: أذهبهما وأبعدهما .

لقد أقام الله آدم بين يدي الملائكة وإبليس، ومن خلال امتحان السجدة؛ نبّهه تنبيهاً عملياً بما سيدور عليه سلوكه في الحياة الأرضية، وهو سلوك متجه في أحد الطريقين المتقابلين: الأول هو طريق الاستسلام المطلق لأمر الله تعالى كالملائكة ؛ وإن كان ذلك الاستسلام بمعناه العملي يعني إخضاعه نفسه أمام عبدٍ هو دونه رتبةً ومنزلةً، والثاني هو طريق إبليس المتمثل في التعالي والترفع عن الاعتراف والخضوع للغير ، إن حياة الإنسان بأكملها، إنما هي معترك هذا الامتحان، بحيث إن الإنسان في هذه الحياة، يتحتم عليه دائماً أن يتخذ خلال التعامل مع الآخرين أحد الموقفين، ولا ثالث لهما:

أولهما : «الموقف الملائكي» وهو أن يأخذ الإنسان نفسه بالخضوع التام أمام مقتضى الحق والعدل في كل شأنٍ من شئون الحياة الدنيا، طاعةً لله ربه؛ وامتثالاً لأمره.

والآخر : هو «الموقف الشيطاني» وذلك يعني أن الإنسان إذا ما عرض له أمر من الأمور؛ فيقع تحت سيطرة الحقد والحسد، وتنبعث في داخله نفسية الكبر والاغترار، مما يؤدي به إلى مجانبة الصواب، فلا يعترف بما لغيره من الحق عليه، ولا يذعن إلى ما يفرض عليه العدل والإنصاف .

وإن قضية «الشجرة المحظورة» هي الأخرى تمثل درساً عملياً في هذا السياق؛ فهي تفيدنا أن مبدأ انحراف الإنسان هو أن يكون قد تأثر بما يوسوس له الشيطان، وبالتالي يتخطى تلك الحدود التي قد نهى الله تعالى عن تخطيها، وإنه ما إن تمتدّ يدُ الإنسان إلى

تناول ((الثمرة المنهي عن أكلها)) حتى يُحرم هو من نُصرة الله، وبعبارةٍ أخرى يفتقد استحقاق الجنة، غير أن هذا الحرمان ليس حرماناً نهائياً بحيث إذا وقع مرةً فلا يمكن بعد ذلك استدراكه وتلافيه، إذ إن فرصة التوبة لا تزال مفتوحة أمام الإنسان ، ولذا فعليه أن يعود إلى ربه ثانياً؛ سائلاً عفوه ، راجياً رحمته ، مصححاً مسار حياته وسلوكه ، مؤكداً العزم على الثبات والاستقامة ، وعدم الانحراف عن الجادة، وإن العبد حين يتوجه إلى ربه تائباً كهذه التوبة، فإن الله تعالى أيضاً يتوب عليه، أي يقبل توبته، ويطهره من دنس الذنوب تطهيراً كأن لم يكن قد ارتكب ذنباً .

إن قيام الدعوة إلى الله في أي بقعةٍ من بقاع المعمورة، هو امتحان عسير من هذا النوع، كما أن الداعية إلى الحق يكون بمثابة ((آدم)) بالنسبة لمخاطَبِه، ومن هنا، فليس للناس أن يتخذوا نحوه أي موقفٍ غير الخضوع والاستسلام له ، والإذعان العملي إلى ما يدعو إليه، وأما إذا لم يسمح لهم كبرهم وغرورهم بأن يعترفوا به، ولم تتسع صدورهم لقبول دعوته، فكأنهم سلكوا مسلك الشيطان ، إن الله جلّ وعلا لا يظهر للناس في هذه الدنيا عياناً وجهرةً ، إنما هو يختبر الناس من خلال آياته، إذن فإن من وجد الله في آية الله، فقد وجد الله حقاً، ومن لم يجد الله في آية الله فقد حُرم من الله .

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

إِسْرَائِيل: لقب يعقوب عليه السلام.

فَارْهَبُون: فخافون في نقضكم العهد.

وَلاَ تَلْبِسُوا: لا تخلطوا، أو لا تستروا.

بِالْبِر: بالتوسع في الخير.

وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ: لشاقة ثقيلة صعبة.

الخَاشِعِينَ: المتواضعين المستكينين.

يَظُنُّونَ: يعلمون ويستيقنون.

أعظم ما يُنعم به الله على أي شعبٍ من الشعوب؛ هو أن يبعث إليه رسوله، ويوحي إليه ما يوضح لذلك الشعب الطريق المفضي به إلى الفلاح الأبدي والسعادة السرمدية، ولقد كان بنو إسرائيل (الشعب اليهودي) هم الّذين يحملون هذه المنة الإلهية قبل بعثة النبي الخاتم - عليه الصلاة والسلام - غير أن دينهم لم يعد يحظى لديهم بمكانته الأصلية على مرّ الزمن، حيث كان قد تحول - في نهاية الأمر - إلى شيءٍ أشبه ما يكون بطقسٍ أو رسمٍ تقليديٍ، يتوارثونه خلفاً عن سلفٍ؛ وليس شيئاً يختاره الإنسان بناءً على قرارٍ شعوريٍ، وإرادةٍ حيةٍ واعيةٍ، وما أن ظهر النبي العربي - عليه الصلاة والسلام - حتى انكشف النقاب عن الحقيقة؛ فالذين كانوا منهم يمتلكون روحاً لا تزال تشع الصفاء، وشعوراً لا يزال ينبض بالحياة، ما لبثوا أن عرفوا صدقه - عليه الصلاة والسلام - فصدقوا به، وبادَروا بالانضواء تحت لوائه، وأما الذين كان الدين المتوارث عن الآباء قد صار عندهم بمثابة رسمٍ تقليديٍ فإنهم أنكروا صوت النبي - عليه الصلاة والسلام - وأمعنوا في الإنكار، وبالتالي رفضوا دعوته رفضاً باتاً، واتخذوا جبهة المعارضة ضده.

ومع إن ((التوراة)) كانت تتضمن آياتٍ بينات بشأن نبوته - عليه الصلاة والسلام ؛

ما كانت تبلغ من الوضوح والصراحة درجة أنه لم يكن معها أمر الاقتناع والتأكد من صدقه وحقيقة رسالته - عليه الصلاة والسلام - أمراً متعذراً على اليهود، ولكنّ الخوف من فوات المصالح والمنافع الدنيوية التي كانوا يجنونها لأنفسهم، هو الذي حال دون اعترافهم برسالته وتلبية دعوته - عليه الصلاة والسلام - بحيث إنهم كانوا من قبل، يتولون الرئاسة في ظل الهيكل الديني القائم، الذي كان قد تكون لديهم بفعل القرون المتطاولة، كما إنهم كانوا قد أصبحوا مرجع الدهماء من الناس، لتربّعهم على مقاعد الشيوخ والعظماء، وكانت تنهال عليهم صنوف من الهدايا والنذور في المناسَبات الدينية طوال السنة، ومن هنا فقد خُيّل إليهم أنهم إن صدقوا برسالة النبي العربي - عليه الصلاة والسلام- فإن سيادتهم الدينية سوف تكون أثراً بعد عينٍ، وأن بنيان منافعهم سينهار ، وبما أن اليهود كانوا إذ ذاك يحتلون مركز التمثيل الديني (الزّعامة الدينية) في الجزيرة العربية، فإن الناس بطبيعة الحال كانوا يسألونهم عن النبي العربي - عليه الصلاة والسلام، فهم - في نظرهم السند فيما يتصل بموضوع الوحي السماوي، ولقد كان اليهود يقتنصون مثل هذه الفرص بخبثٍ ودهاءٍ بالغَين، لترويج شيءٍ من الأباطيل والمفتريات التي تجعل شخصية الرسول ودعوته مثار الجدل والارتياب عند الناس، ومن المفارقات أنهم في أثناء حديثهم إلى الناس كانوا ينصحونهم قائلين: أنِ اتّبِعُوا الحق، وكونوا أنصار الحق ... إلخ . ولكن عندما اقتضى الأمر أن يأخذوا هم أنفسهم فعلاً باتباع الحق ونصرته، لم يستطيعوا ، فلم يتبعوا الحق ولم ينصروه.

وإن أمر التلبية لنداء الله تعالى؛ إذ يكون بحيث يفرض على الإنسان حتمية القيام بتغييرٍ جذريٍ لخريطة حياته، ويستلزمه أن ينزل بذات نفسه عن مقاعد الشرف والوجاهة، فإن الأمر عند ذلك ليتخذ شكلاً رهيباً ومقلقاً جداً بالنسبة لأولئك الذين لم ينالوا ما نالوا من السمعة والمكانة الدينية إلا في إطار هذه المظاهر الدنيوية البراقة، ولكن الذين يمارسون حياتهم على أساسٍ من الخشوع، فإن بَريق مثل هذه الأشياء والظواهر لا يشكل لهم أيما عائقٍ أو صعوبةٍ ذات بالٍ، ذلك أنهم يجدون في ذكر الله،

والإنفاق في سبيل الله، وفي الاستسلام لأمر الله، والصبر لله؛ يجدون في ذلك كله خير بديلٍ لما يجده الآخرون من الناس في زخارف الدنيا ومُغرياتها، فإنهم يدركون جيداً أن الشيء الذي ينبغي أن نحسب له ألف حسابٍ، وأن نخافه كل الخوف، إنما هو غضبٌ الله تعالى، وليس مخاوف هذه الدنيا الفانية.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

العَالَمِينَ: عالمي زمانكم .

لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ: لا تقضي ولا تؤدي نفس .

عَدْل: فدية .

يَسُومُونَكُم: يكلفونكم ويذيقونكم .

وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُم: يستبقون بناتكم للخدمة .

بَلاَء: اختبار وامتحان بالنعم والنقم .

فَرَقْنَا: فصلنا وشققنا .

اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ: جعلتموه إلها معبودا.

وَالْفُرْقَان: الشرع الفارق بين الحلال والحرام .

بَارِئِكُم: مبدعكم ومحدثكم .

فَاقْتُلُواْ أَنْفُسَكُمْ: فليقتل البرىء منكم المجرم .

جَهْرَةً: عيانا بالبصر .

الْغَمَامَ: السحاب الأبيض الرقيق .

الْمَن: مادة صمغية حلوة كالعسل .

وَالسَّلْوَى: الطائر المعروف بالسمانيّ .

إن الله تعالى كان قد فضل اليهود على العالمين جميعاً؛ أي أنه تعالى كان قد اختارهم لحمل أمانته الخاصة التي تتمثل في الوحي السماوي، وإيصاله إلى من دونهم من الأمم والشعوب، ثم أفاض الله عليهم نعمه، نظراً لضخامة المسئولية الملقاة على عواتقهم، وكتأهيلهم لتأديتها خير أداءٍ، وقد وفَّر لهم كثيراً من الإمكانيات وتفضل بالعفو عن الخطايا والزّلاّت التي وقعوا فيها كثيرا، وأيَّدهم بنصرةٍ منه غير عاديةٍ في ظروفٍ وملابساتٍ غير عاديةٍ، و « إعطاءهم الخبزَ من الربّ ليأكلوا » (سفر الخروج: ١٦/ ١٥)، وما إلى ذلك، ولقد تسبّب هذا كله في تكوين نظرة خاطئة لدى أجيال

اليهود القادمة فيما بعد، تتمثل قولهم : «إننا شعب الله المختار، وأن نجاحنا في الآخرة مضمون لنا مسبقاً» ولكن هذه المزايا لا يتسنّى استحقاقها لأحدٍ وراثياً، إذ إنها لا تكون مبنية على مجرد الانتماء إلى سلالةٍ أو عرقٍ بعينه، إن مصائر الأفراد اللاحقين لشعبٍ من الشعوب لا يتم تقريرها أبداً على أساس أسلافهم السابقين، بل على أساس كل فردٍ على حدةٍ ﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور:٢١] ، إن يوم الدينونة والعدل الإلهي سيكون يوماً قاسياً وشديداً لدرجة أنه لن يغني عن أحدٍ شيءٌ سوى عمله الذّاتي .

والتديّن الحقيقي : أن يخضع الإنسان في عبادته لله وحده؛ ويعبده لا يشرك في عبادته أحداً،وأن يؤمن بوجود الله الذي لا تدركه الأبصار بالغيب،حيث لا يشترط لإيمانه رؤية الله جهرةً وعلانيةً ، وأن يمارس حياته على أساسٍ من التقوى والخشية من حساب الآخرة؛ فيتقوت ويقضي حاجات حياته الأُخرى عن طريق الكسب الحلال،ويمنع أهله ومَن هم تحت رعايته وسلطته عن إتيان المنكر وسلوك طريق الإجرام والمعصية .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

رَغَدا: أكلا واسعا هنيئا لا عناء فيه.

وَقُولُوا حِطَّةٌ: قولوا : مسألتنا ياربنا أن تحط عنا خطايانا .

رِجْزا: عذابا ، قيل هو الطاعون .

فَانفَجَرَت: فانشقت وسالت بكثرة.

مَشْرَبَهُم: موضع شربهم .

وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ: لا تفسدوا فيها .

مُفْسِدِين: متمادين في الفساد .

وَفُومِهَا: هو الحنطة ، أو الثوم.

وَضُرِبَتْ عَلَيْهِم: أحاطت بهم أو التصقت بهم .

الذِّلَّةُ: الذل والصغار والهوان.

وَالمَسْكَنَة: فقر النفس وشحها.

وَبَاءُوا بِغَضَبٍ: رجعوا به مستحقين له .

اختص الله اليهود بنعمٍ وفيرةٍ لم يؤت مثلها أحداً من العالمين؛ الأمر الذي كان -بطبيعة الحال- مستلزماً لأن يكونوا من عباد الله الشاكرين، ولكنهم أتوا بما هو عكس ذلك تماماً، فمن عظيم النعم الإلهية عليهم أن جُعلت بلدة كبيرة بحذافيرها تحت سيطرتهم، وقيل لهم ألا يدخلوها متكبرين، بل خاضعين لله تواضعاً، ومستغفرين إياه لذنوبهم، ولكنهم أخذوا - بدلاً من ذلك - يرددون كلماتٍ فكاهيةً ساخرةً، كما أُعِدّت لهم أغذية فطرية تتمثل في المن والسلوى؛ كي يستطيعوا الحصول على أكبر قدرٍ ممكنٍ من

الوقت الفارغ للقيام بتنفيذ أحكام الله وامتثال أوامره تعالى ، ولكنهم بدؤوا يطالبون بتوفير أنواع المآكل الشهية وصنوف الأطعمة المسبَّكة ، إنهم لم يقنعوا من العيش بمقدارِ حاجتهم، بل اندفعوا اندفاعاً لاهثاً وراء البحث عن اللذات ، وانغمسوا في إشباع الشهوات ، وقد بلغوا من القسوة مبلغاً كبيرا لدرجة أن البينات هي الأخرى لم تعد تجدي شيئاً مع مشاعرهم المتبلدة وقلوبهم القاسية المتحجرة ، والأكثر دلالةً على مدى طغيانهم وجرأتهم على المعصية أن عباد الله الذين بُعثوا فيهم ليمنعوهم من غوايتهم، لم يلقوا إليهم أسماعهم؛ ازدراءً بشأنهم، ليس ذلك فقط، بل لقد تضايقوا بوجود المصلحين لدرجة أنهم قتلوهم بغير حق . والسؤال : ما الذي دفع اليهود إلى مثل هذا التمرد على أحكام الله ؟

إن مصدر ذلك في الحقيقة هو ظنهم القائل بأنهم شعب الله المختار؛ الناجي من كل مؤاخذةٍ أو تعذيبٍ على الإطلاق ، لكن القانون الإلهي متناهٍ في العدل ، حيث لا محاباة فيه لأحدٍ، وإن حكمه سيكون حكماً محايداً للغاية؛ حيث لا يميز بين يهودي وغيره، وإن الجنة إنما يستحقها من يعمل عمل أهل الجنة ، وليس من ينتمي إلى هذه السلالة دون تلك ، أو يُعزى إلى هذا الشعب دون ذاك ، إن ممارسة الحياة الأرضية على أساسٍ من الشكر، والصبر، والتواضع، والقناعة، معناها إصلاح الأرض وتعميرها، وعلى النقيض من ذلك، فإن ظاهرة الجحود، والهلع، والتكبر، والشّح والجشع، معناها إثارة الفساد في الأرض وتخريبها؛ إذ إن ذلك كله لما يؤدي عاقبة الأمر إلى إحداث خللٍ واهتزازٍ في ذلك النظام الفطري الذي قرره الله تعالى، وهو يمثل اعتداء من الإنسان على الحدودَ التي رسمها الله له، على حين أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يتصرف كل إنسان في نطاق حدوده هو، ولا يتجاوز أحد دائرة حدوده الذاتية.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

تَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

هَادُوا: صاروا يهودا.

وَالصَّابِئِينَ: عبدة الملائكة أو الكواكب .

ذكرت الآية طوائف أربع:

أولاها: المسلمون ، الذين هم أتباع النبي محمدٍ ﷺ .

والثانية: فرقة اليهود التي تقول إنها على دين موسى - عليه الصلاة والسلام .

والثالثة : طائفة النصارى التي تقول : أنها أمة عيسى - عليه الصلاة والسلام .

والرابعة : هي فرقة الصابئين الذين يزعمون أنهم على دين نوحٍ - عليه الصلاة والسلام - والذين سكنوا في سالف القرون بالعراق ، وقيل إنهم كانوا أهل كتابٍ، يقرأون الزبور، ويصلون للقبلة، غير أن فرقة الصابئة قد انقرضت؛ وأصبحت الآن أثراً بعد عينٍ.

والأمر الجدير بالتسجيل في هذا المقام أن المسلمين - أي الأمة المحمدية - ورد ذكرهم في الآية ضمن أممٍ أخرى تنتمي إلى أنبياء آخرين في سياقٍ واحدٍ، ومن غير استثناءٍ أو تمييزٍ، وهذا التعميم إن دل على شيءٍ فإنما يدل على أن الجميع على أمة أو كتلة شعبية خاصة متساوون عند الله تعالى، وليس ثمة فارق جوهري يميز شعباً معيناً على شعبٍ آخر لمجرد تكوينه الشعبي؛ فهناك قانون تعتمد نجاة الجميع عليه ألا وهو الإيمان والعمل الصالح ؛ إذِ العبرة في ذلك - أي فيما يتصل بنيل الدرجات عند الله تعالى - القيام بصياغة الحياة العملية وممارستها وفق مشيئة الله عز وجل.

إن أتباع أيّ نبيّ عندما يتشكلون في الزمن المعاصر له، يتم تشكيلهم دائماً على ركائز صلبةٍ من الإيمان والعمل الصالح ، فعادةً ما يحدث إذ ذاك أن صوت النبي يعمل على إحداث ثورةٍ عقليةٍ وفكريةٍ في عددٍ قليلٍ أو كثيرٍ من الناس، وبالتالي تستيقظ في

نفوسهم إرادة جديدة، تؤدي بهم إلى القيام بتغييرٍ جذريٍ شاملٍ في حياتهم العملية، بحيث يتخذون من التعاليم الإلهية منهاجاً لمسيرة حياتهم التي كانت قبلئذٍ تسير على أساسٍ من الأهواء والرغبات الذاتية ، إن هؤلاء هم الذين يكونون « أمة النبي » في حقيقة الأمر، وهم الذين يُبشَّرون بنعيم الآخرة الأبدي !!

غير أن الوضع لا يلبث أن ينقلب في الأجيال التالية ، إذْ يتحول دين الله بالنسبة للأجيال التالية إلى شيءٍ أشبه ما يكون بتقليدٍ أو رسمٍ قوميٍ ، وأما البشائر التي كان قد تم إعلانها سابقاً على أساس الإيمان والعمل الصالح، فهي الأخرى يتغير مفهومها؛ بحيث تُعْتَبر الآن وكأنها حاصلة بمجرد العلاقة الشعبية أو الانتماء الطائفي ، وينتهي بهم الأمر إلى اعتقاد أن طائفتهم التي ينتمون إليها لها علاقة خاصة بالله، وأن الشخص الذي ينتمي إلى تلك الطائفة الخاصة، بغض النظر عن عقائده وأعماله لا بد أن يفوز بالخلاص الأخروي، وأن الجنة لا يستحقها إلا هو وطائفته وحدها، وأما جهنم فإنها هي للطوائف الأخرى .

غير أنه ليس هنالك أي شعبٍ من الشعوب يتمتع بأية علاقةٍ خاصةٍ بالله تعالى، فإن العبرة عند الله إنما هي بنوعية ما يؤمن به الإنسان من فكرٍ وما يأتيه من عملٍ لا غير، ومصير الإنسان في عالم الآخرة، إنما يتحدد على أساس سلوكه الحقيقي، وليس على أساس الانتماءات الشعبية .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

مِيثَاقَكُمْ: العهد عليكم بالعمل بما في التوراة.

خَاسِئِينَ: مُبعدين مطرودين صاغرين.

فَجَعَلْنَاهَا نَكَالا: عقوبة.

إن روايات «الكتاب المقدس» تقول: إنه لما أخذ الله العهد على بني إسرائيل في زمن موسى - عليه الصلاة والسلام - بامتثال أوامر الله تعالى كما ينبغي، قد رفع الله فوقهم الجبل إذ ذاك، وخاطبهم قائلاً: « إما أن تقبلوا التوراة، وإلا فستُهلكون جميعا ها هنا» (التلمود)، وهكذا الأمر بالنسبة لكل شخصٍ يؤمن بالله، إن الإيمان بالله يعني المرء قد أخذ على نفسه عهداً بأن حياته ومماته ستمضي وفق منهاج الله عز وجل، إن هذا العهد خطير للغاية؛ حيث إنه يتم التعاقد فيه بين طرفين، أحدهما العبد الذي هو في منتهى الضعف والقصور والعجز، وأما الطرف الآخر فهو الله العزيز الذي يملك كل طاقات السماء والأرض، وإن العبد إذا التزم فعلاً بكل مقتضيات هذا العهد، وأحسن الوفاء به، فقد استحق عند الله نعيماً خالداً لا يزول ولا يفنى أبداً، وأما إذا هو أخلف عهده ذاك ورفض الالتزام الفعلي بمقتضياته، فقد عّرض نفسه لمصيرٍ غايةٍ في الخطورة؛ وذلك أن يقذف به الله في نار جهنم، ولا يجد إلى الخروج منها من سبيلٍ.

إن المشاعر والكيفيات التي طرأت على قوم موسى - عليه الصلاة والسلام - في أثناء أخذهم الميثاق الإيماني، هي نفسها مطلوبة من كل عبدٍ مؤمنٍ، فينبغي لكل من يربط نفسه بالله برباط الإيمان، أن يهتز كيانه وترتعد فرائصه، استشعاراً لمدى خطورة الأمر، وكأنه لئن همّ بنقص هذا العهد « فإن الأرض تنشق من تحته، والسماوات يتفطرن من فوقه ».

إن من ظواهر الضلال الذي يقع فيه شعب مُنح شريعةً من عند الله تعالى، أن تكون تصرفاته العملية في الحياة على النقيض تماماً مما تقتضيه شريعة الله، ومن جهةٍ أخرى يعمد إلى تبرير موقفه غير الشرعي ذاك متذرعاً بصنوفٍ من التأويلات، زاعماً أنه محافظ

تمام المحافظة على أحكام الله تعالى ، ولقد أُمِرَ اليهود بأن يَخُصّوا يوم السبت بالذكر والعبادة والصيام، وألا يعملوا فيه شيئاً يتصل بالشئون الدنيوية، ولكنهم لم يراعوا هذه الحرمة الإلهية حق رعايتها، حيث أخذوا يتشاغلون بأمورهم الدنيوية في يوم السبت أيضاً كشأنهم في غيره من الأيام، ثم إنهم - مع ذلك - دَأَبوا على اختلاق أنواعٍ من التبريرات والتأويلات اللفظية لكي يخدعوا الناس بأن الذي يفعلونه ليس خلافاً للشريعة، بل هو عين ما أمر الله به إياهم ، ولقد تسبب تمردهم هذا في إثارة غضب الله لدرجة أنهم مُسخوا إلى قردة خاسئين .

والجدير بالذكر أنه كلما انحرف الإنسان عن الشريعة وأحكامها، انحطَّ إلى مستوى البهائم التي هي غير ملزمةٍ بأي ضابطٍ أو قانونٍ أخلاقي ، ولذا فليحذر الذين تسول لهم أنفسهم هذا النوع من التلاعب بالشريعة الإلهية؛ أن يأخذهم القانون الإلهي ، فينزل بهم إلى ذلك الدرك من الذل الحيواني المهين ، الذي وقع فيه اليهود من قبل .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

هُزُوا: سخرية .

لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْر: لا مُسِنة ولا فتية.

عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِك: نصف ((وسط)) بين السنين .

فَاقِعٌ لَّوْنُهَا: شديدة الصفرة .

لاَّ ذَلُولٌ: ليست هينة سهلة الانقياد .

تُثِيرُ الأَرْضَ: تقلب الأرض للزراعة .

الحَرْثَ: الزرع أو الأرض المهيأة له .

مُسَلَّمَةٌ: مُبَرأة من العيوب.

لاَّ شِيَةَ: لا لون فيها غير الصفرة الفاقعة .

فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا: فتدافعتم وتخاصمتم فيها .

في زمن سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام - حدث أن قُتل رجل من بني إسرائيل، ووقع اختلاف شديد في : من هو القاتل ؟ فأمرهم الله تعالى بواسطة النبي أن يذبحوا بقرةً، ويضربوا القتيل ببعض أعضائها، فسيعود القتيل إلى الحياة بإذن الله، ويدل على من قتله، وقد اتُخذ بشأن حادث القتل الآنف الذكر هذا الأسلوب الخارق للعادة لأغراضٍ عديدةٍ، منها :

أولاً : لقد تأثر بنو إسرائيل، أثناء إقامتهم الطويلة في مصر، بالحضارة المصرية وتقاليدها الوثنية تأثراً بالغاً، وبما أن المصريين كانوا يعبدون البقرة، فما لبث بنو إسرائيل أن تسرب إليهم أيضاً الاعتقاد بقداسة البقرة، وعندما وقع الحادث المتقدم ذكره، أراد الله تعالى أن يكون وسيلة لتحطيم ذلك الاعتقاد المستقر في أذهانهم عن قداسة البقرة، ومن هنا فقد اتُخذ من ذبح البقرة وسيلةً لإطلاعهم على شخصية القاتل المتنازع فيها .

ثانياً : وبما أن من تصرفات بني إسرائيل الخاطئة الممقوتة، أنهم قد جعلوا من دين

الله السهل البسيط ديناً شاقاً وعسيراً بسبب خوضهم في الأمور الجانبية، وانغماسهم في التهميشات الفقهية ، فقد تم تلقينهم درساً بالغ الأهمية، وهو أنه إذا ما جاء حكم من عند الله تعالى، فيجب عليكم أن تبادروا بالعمل الفوري به؛ حاملين إياه على أبسط محامله، وإياكم أن تتبعوا في هذا الشأن سبيل التعمق والتنقير والتفصيلات الجدلية التي أعفاكم الله منها .

ثالثاً : وعن طريق هذا الحادث تم إشعار بني إسرائيل بأن الحياة الثانية هي حياة ممكنة؛ شأنها شأن الحياة الأولى، وأن الله سيحيي كل إنسانٍ بعد موته، وسيبعثه ثانياً في عالمٍ جديدٍ.

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

يَتَفَجَّرُ: يتفتح بسعة وكثرة .

يَشَّقَّقُ: يتصدع بطول أو بعرض.

إن الذين يتخذون من إثارة المناقشات اللفظية حول الحكم الإلهي ديدنهم ، ومن ابتغاء التأويلات البعيدة الفاسدة دأبهم؛ يتدرجون، يوماً بعد يوم؛ إلى الإصابة بمرض الجمود وبلادة الإحساس، فتقسو قلوبهم وتتحجر شيئاً فشيئاً ، إن اسم الله هو اسم لذاتٍ أعظم وأسمى في الوجود، وإن المرء إذا كان في داخله معموراً بالإيمان الحي، فإن فؤاده يرتجف عند ذكر الله، ويجد نفسه أميل إلى الصمت والسكوت غير أن القلوب حين تُصاب بالجمود والبلادة الحسية؛ فإن أحاديث الله هي الأخرى تصبح مثار المجادلات العقيمة والتأويلات الباطلة؛ كما هو الشأن في الكلام الإنسانى العادى ، إن عملاً كهذا لا يزيد الخائضين فيه إلا قسوةً وتحجراً وبلادة إحساسٍ، حتى تصير قلوبهم

وكأنها الحجارة أو أشد منها قسوةً وصلابةً ، وبالتالي فلا يعود ذكر الله واستحضاره يذيب قلوبهم، ولا هو يُلهب مشاعرهم وأحاسيسهم، ولا هو يتسبب في إيجاد رجفةٍ وارتعادٍ في أرواحهم ونفوسهم ، لقد ورد ذكر الحجارة ها هنا على سبيل التمثيل .

وقد تناولت هذه الآية الإشارة إلى ثلاثة أمثلةٍ، من تلك التي وضعها الله تعالى في عالم الأحجار :

١- فمما يُشاهد على سطوح الجبال المرتفعة، أن تُوجد عيون المياه، وهي تسرح في داخل الأحجار والصخور، والتي تتخذ نهائياً، بعد أن يلتقي بعضها ببعضٍ، شكل الجداول والأنهار ، إنها صورة تمثيلية ترمز إلى ذلك الإنسان الذي أخذت الخشية الإلهية من قلبه كل مأخذٍ، ثم هي لا تلبث أن تأخذ في التدفق من عينيه في صورة الدموع.

٢- والمثال الثاني يصور الحجارة التي تبدو للوهلة الأولى، وكأنها ليست سوى صخرةٍ غليظةٍ صماءَ ، غير أننا عندما نقوم بشقها وتحطيمها ، يكشف ذلك عن ذخائر كبيرةٍ للمياه ، كانت متوافرةً منسابةً تحتها ، وهذه الصورة التمثيلية ترمز إلى الإنسان الذي يبدو، في بادئ الأمر، وكأنه بعيد عن الله مقطوع الصلة به، ثم يمر عليه حادث من الحوادث، فيهزّ روحه ووجدانه هزاً عنيفاً، وإذا به يسعى نحو الله ربه في سيلٍ من الدموع.

٣- وثالث الأمثلة في عالم الأحجار ما يُسمى بالهبوط أو الانزلاق الأرضي، والذي يتمثل في انزلاق الجنادل والصخور من أعالي الجبال إلى حضيض الأرض .. وتلك صورة تمثيلية ترمز إلى ذلك الإنسان الذي اتخذ موقفاً غير صحيحٍ نحو قضيةٍ ثارت بينه وبين إنسانٍ آخر ، ثم عُرض عليه بعد ذلك حكم الله بشأن تلك القضية؛ فما لبث، بعد أن اتضح له الحكم الإلهي، أن تهدم وانْهارَ ، إنه لم يكن يرضى بأن يخضع ويستسلم أمام الإنسان ، غير أن قضية الإنسان عندما صارت قضية الله؛ لم يتمالك هو نفسه من أن يخرّ أمامه بكل تواضع وخضوعٍ .

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

يُحَرِّفُونَهُ: يبدلونه ، أو يؤولونه بالباطل .

خَلا بَعْضُهُمْ: مضى إليه، أو انفرد معه .

فَتَحَ الله: حكم به أو قصَّه عليكم .

إن من جملة العوامل التي يرجع إليها ما سجلّه التاريخ من مبادرة أهالي المدينة، بمثل تلك السرعة، في معرفة رسول الله ﷺ عقب ظهوره، والتصديق الفوري به ؛ أنهم كثيراً ما كانوا يسمعون من جيرانهم اليهود أن نبياً - وهو آخِر لأنبياء -مبعوث قد أظل زمانه ، وبناءً على ذلك، فقد كان نبأ مبعث النبي الخاتم، بالنسبة لهم- أي بالنسبة لأهالي المدينة - نبأً مألوفاً غير داعٍ إلى أية دهشةٍ أو استغرابٍ ، ولقد كان مسلمو المدينة هؤلاء - بطبيعة الحال - على جانبٍ كبيرٍ من حسن الظن والرجاء بأن اليهود أنفسهم سوف يبادرون باتباع الرسول والانضواء تحت لوائه؛ نظراً لأن أحاديثهم هي التي كانت الباعث الأوليّ على ترغيبهم في اعتناق الإسلام .. ومن هنا فقد كانوا يتقدمون، بحماسٍ اندفاعٍ بالغَين، لإبلاغ رسالة الإسلام إلى هؤلاء اليهود، ودعوتهم لأن يؤمنوا برسول الله ﷺ وينضموا إلى طائفة أتباعه وأنصاره .

ولكن المسلمين كانوا يصدمون نفسياً حين يرون اليهود على العكس مما قد عقدوه عليهم من آمال، فأدى ذلك إلى نتيجة خطيرة أخرى، وهي أن الذين كانوا يضمرون الحقد والعناد والمكابرة ضد شخصية رسول الإسلام ﷺ أخذوا عندئذٍ يثبطون المسلمين قائلين : إن أمر هذا النبي ليس من التأكد والوثوق إلى هذا المبلغ الذي قد زعمتموه ؛ إذ

لو كان ذلك كذلك، لسبقكم علماء اليهود وأحبارهم إلى التصديق به، فإنهم أكثر منكم علماً ومعرفةً بالكتب السماوية وأسرارها.

غير أن قبول شيءٍ ما؛ لا يتوقف أبداً على مجرد معرفة الرجل بذاك الشيء، بل يجب - فوق ذلك - أن يكون الرجل جاداً تمام الجدية بالنسبة لذلك الشيء ، أما اليهود فكان الأمر قد انتهى بهم إلى أن أدخلوا عدداً لا يُحصى من التغييرات فيما عندهم من الأسفار والكتب التي كانوا يعتقدون بأنها كتب سماوية ، فكلما وجدوا في ثنايا كتبهم المقدسة، شيئاً يخالف أهواءهم، تأوّلوه على غير تأويله، أو حرفوه عن مواضعه، حتى يتفق وما تهواه أنفسهم، إنهم كانوا قد استتبعوا دينهم لمصالحهم الدنيوية الهينة، والذين تكون أعمالهم وتصرفاتهم من هذا النوع من انعدام الجدية، تُرى هل يمكن أن يعترف هؤلاء بحق يظهر خارج ذواتهم ؟!

إنه لو أراد المرء أن يتخذ موقف الإنكار بإزاء شيءٍ ما، مهما كان ذلك الشيء مبنياً على الحق، لأمكنه أن يعتسف تأويلاً يبرر موقفه السلبي بأي حالٍ من الأحوال، وعندما يبرز هذا التأويل في شكله النهائي يسمى «التحريف» ، والنتيجة المحتومة التي ينكشف عنها مثل هذا الموقف هي أن يفقد المرء تلقائياً إحساسه بمدى خطورة الأمر المتصل بالله ، بحيث إنه قد يستمع إلى بعض أحكام الله تعالى، ولكنه لا يزال مطمئناً بما كان عليه سابقاً، متكئاً على أي تأويلٍ لفظي يجعل شأنه بعيداً عن ذلك الحكم الإلهي، أي إنه يتمتع بصفةٍ استثنائيةٍ ، وقد يكون مؤمناً بالله تعالى، غير أن قسوته القلبية تجعله يتجاسر على ارتكاب أنواعٍ من الأمور العظام لا يتجاسر على ارتكابها إلا الذي لا يؤمن بالله مطلقاً، والذي لا يعلم أنه الله بصير بكل أفعاله وتصرفاته، وسميع لسائر أقواله وأحاديثه .

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا

قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

أُمِّيُّونَ: جهلة بكتابهم (التوراة).

فَوَيْلٌ: هلكة،أوحسرة، أو شدة عذاب، أو واد عميق في جهنم.

كَسَبَ سَيِّئَة: هي هنا الكفر.

وَأَحَاطَتْ بِه: أحدقت به واستولت عليه.

أُريد «بالأماني» ما كان قد وضعه أحبار اليهود من القصص والأساطير الخرافية حول دينهم، والتي كانت؛ بسبب بهرجتها الظاهرية وبريقها الخادع، قد حظيت بقبول كبير بين عامة الناس. وقد رُوي عن ابن عباس بهذا الخصوص، أن هذه (الأماني): «أكاذيب مختلَقَة، سمعوها من علمائهم، فنقلوها على التقليد» (البحر المحيط)، وكانت هذه الأقاصيص تنطوي على مزاعم وأقوالٍ، عُزِيت كذباً إلى شيوخهم وأنبيائهم السابقين، بحيث تزعم أن نار الجحيم ليست لليهود بل هي لمن دونهم من الأمم والشعوب، وأن بني إسرائيل هم أبناء الله وأحباؤه، وأن الدين الذي يؤمنون به هو دين يتمتع بخصائص ومواصفاتٍ طلسميةٍ بحيث إن شيئاً عادياً بسيطاً منه يكفي لتخليص المرء من نار جهنم وإيصاله إلى جنات النعيم.

وبالطبع فقد كانت هذه الوصفات المقدسة لإحراز النجاة الرخيصة تمتلك قوة جذبٍ كبيرةً للعوام؛ بحيث إنهم كانوا يجدون فيها تصديقاً وسنداً لآمالهم الفارغة التي كانوا يعيشون على أساسٍ منها، وتتلخص تلك الآمال في أن الوصول إلى الجنة، لا

يستلزم بالضرورة أن يضعوا حداً لحياتهم المنحرفة والمنطلقة من كل التبعات والمسئوليات؛ إذ إن البركات التي تحصل لهم عن طريق الرقى والعزائم هي وحدها كفيلة بأن تقودهم إلى الجنة دون عمل ولا حسابٍ ، ولهذا فإن علماء اليهود الذين كانوا يتغنَّون بأمثال هذه الأقاصيص إذ ذاك تلقاهم الناس بغايةٍ من الحفاوة والاحترام والتقدير ، فإن عملهم على التخفيف من شدة أمر الآخرة صار لهم بمثابة سُلّمٍ إلى تجارةٍ دنيويةٍ عظيمة الشأن، حيث التفّ حولهم حشو من الناس كبير؛ وبدأت تنهال عليهم الهبات والنذور من كل صوبٍ ، إنهم كانوا يدلّون الناس مجاناً على أقرب وأيسر الطرق المؤدية إلى الجنة، فعوّضهم الناس عن ذلك، بأن وفروا لهم مجاناً كذلك، كل ما أمكن توفيره من عروض الدنيا ومتعها من عند أنفسهم .

وذلك هو الداء العُضال الذي ما بَرِح يصيب الأمم الأمينة على الكتاب الإلهي في كل العصور والأزمان ، إن الذين يمارسون حياتهم على أساس هذا النوع من الأحلام اللذيذة، والذين يظنون أن ما أُلقي عليهم من الأعباء والمسئوليات، إنما ينحصر في نطاق بضعة أعمالٍ ومراسم شكليةٍ وكفى، والذين تراودهم هذه الأمنية الحالمة بأن جميع حقوقهم صارت محفوظةً عند الله إلى أبد الآبدين ؛ فإن أشق ما يكون على أمثال هؤلاء القوم دائماً، هو الدعوة إلى الدين الخالص ، إذ هم يرون ذلك مما يؤرقهم ويُنغص عليهم مذاق العيش ولذته ، ولأن ذلك - ولا ريب - يُرغمهم على المثول بين يدي حقائق الحياة وهي سافرة مكشوفة لا يحول دونها حائل .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

أول ما يجب على الإنسان نحو الله أن يأخذ نفسه بعبادة الله تعالى وحده ، ولا يشرك به أحداً، والواجب الثاني هو الالتزام بحسن المعاملة مع عباد الله أجمعين ، ويبتدئ هذا

السلوك الحسن أول الأمر ، بإحسان الإنسان إلى أبويه هو، ثم ينتقل من هناك إلى الأقارب والجيران، حتى ينتهي إلى كل إنسان يصادفه ويتعامل معه في مختلف ميادين الحياة العملية، وكلما ثارت قضية من القضايا في الحياة بين إنسانٍ وآخر ؛ تحتم اتخاذ موقف سلوكي واحد، ألا وهو الاحتكام إلى العدل والنصح له بالمعروف ، وفي هذا الشأن يتركز الاختبار الأصلي للإنسان على ((اليتامى والمساكين))، أو بلفظٍ آخر على ((الضعفاء)) بصفةٍ خاصةٍ، إذ إن قوة القوي هي ذاتها كفيلة بدفع الناس إلى التصرف الجميل معه، غير أن الضعيف لا يجتمع بوجوده دافع إضافي كهذا ، ما من شأنه أن يبعث الآخرين على الإحسان إليه، ولذا فإن الموقف الأكبر الذي يطالب الإنسان فيه بالتزام السلوك الحسن هو الموقف الذي يتم التعامل فيه مع الضعفاء !!

وذلك لأن التعامل مع الضعفاء لا يكون إلا لابتغاء وجه الله ، لا لشيء آخر ، وفي بعض الظروف تنطفئ عاطفة الإحسان إلى الضعفاء لعوامل شتى منها : أن الرجل الضعيف هو اليد السفلى الآخذة ، وهذا قد يشعر المعطي بالاستعلاء بالمقارنة إلى الفرد الآخذ ، وهذه النفسية قد تحول دون مراعاة كرامة الضعيف الشخصية ، كما أن الرجل الضعيف ينتظر منه أن يُجامل في السؤال، أو يُبالغ في إظهار حاجته على نحو ما ، وإلا عُدَّ غير جدير بالعطاء إلى غير ذلك من شتىّ صور الإيذاء النفسي أو الفعلي خلال التعامل معه.

ولهذه العوامل كلها جعل الله قول المعروف خلاصة الأعمال وجوهرها على الإطلاق، وربّ كلمة ودّ حقيقية أفضل من كثير من الأشياء بالنسبة للإنسان، فالمرء يلقي الخطب الرنانة بكل سخاءٍ، غير أنه أبخل ما يكون بالنطق بكلمةٍ جميلةٍ واحدةٍ؛ إذا كانت تلك الكلمة تعني عملياً أن يعترف بفضل إنسانٍ آخر سواه ، ولا سيما إذا كان المقابل له ليس على جانبٍ من القوة والعزة، فهو عندئذٍ يرى نفسه في غير حاجةٍ حتى إلى استخدام كلماتٍ مهذبةٍ شريفةٍ في الحديث معه، أما إذا أساء إليه أحد إساءة ما، فهو إذن لا يرى بأساً في استثنائه من كل حكمٍ إلهي بشأن رعاية مبدأ العدل في المعاملات

البشرية جمعاء .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم: تتعاونون عليهم .

أُسَارَى : مأسورين.

تُفَادُوهُم: تخرجوهم من الأسر.

خِزْي: هوان وفضيحة وعقوبة .

كانت هناك ثلاث قبائل من اليهود تقطن نواحي يثرب (المدينة القديمة)؛ وهي : بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع، وكان هؤلاء جميعاً يؤمنون بالشريعة الموسوية، غير أن التعصبات الجاهلية أدّت بهم إلى أن فرقوا دينهم فصاروا شيعاً وأحزاباً متناقضة، ومن أجل الحفاظ على مصالحهم السياسية كانوا قد انضموا إلى جيرانهم المشركين - قبيلتي الأوس والخزرج - بالمدينة إذ ذاك ، فانضوى بنو النضير وبنو قريظة تحت لواء الأوس، أما بنو قينقاع فكانوا حلفاء الخزرج ، ونتيجة انقسامهم على هذا النحو، كثيراً ما كانت تنشب بينهم حروب دامية، ومعركة بُعاث، هي واحدة من تلك الحروب التي وقعت قبل الهجرة النبوية بخمسة أعوام ، وقد كان اليهود في هذه الحروب يتخذون جبهتَيْن، بانحياز كل فريق منهم إلى حلفائهم من المشركين؛ وبالتالي

يقتل يهود إحدى الجبهتَيْن أبناء دينهم من الجبهة المعارضة، ويُخرجونهم من بيُوتهم، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها يأخذون في مناشدة إخوانهم في الدين ، يطلبون منهم التبرعات والمعونات المالية لكي يفادوهم من أسر القبائل الوثنية، إنهم كانوا يخالفون الحكم الإلهي فيما يتصل برعاية حرمة النفس وحرمة المال، ثم يتظاهرون بهذا النوع من التعاطف الكاذب مع الذين صاروا ضحايا سياستهم العُدوانية الظالمة، لكي يزعموا أنهم على جانبٍ من التدين عظيم.

وبما أن أحكام الشريعة الأصيلة والأساسية تحتم على المرء أن يتخلى عن الحياة الجاهلية، كما أنها لا تتفق مع ما تميل إليه نفسه من الأهواء والشهوات، وأنها أيضاً تضع حداً لسياسته العملية التي تقوم على المنافع الدنيوية وحدها؛ من أجل ذلك كله لا يلقي المرء إلى هذه الأحكام بالاً، غير أنه ربما يتظاهر بإقامة بعض الطقوس والمراسم الشكلية العادية علي مرأىً ومسمعٍ من الناس، لكيما يزعم أنه محافظ على دين الله متمسك بأهدابه.

إنَّ مثل هذا الاجتراء على الدين وإهمال مراقبة الله والجانب الأخروي، يجعل الإنسان جديراً بالغضب الإلهي وليس الإنعام الإلهي .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ

غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾

وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ: أتبعنا على أثره الرسل على منهاجه .

بِرُوحِ الْقُدُسِ: بالروح المطهر جبريل عليه السلام.

قُلُوبُنَا غُلْفٌ: عليها أغشية وأغطية خلقية .

يَسْتَفْتِحُون: يستنصرون ببعثته ﷺ .

اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ: باعوا به أنفسهم .

بَغْيًا: حسدا .

فَبَاءُوا بِغَضَبٍ: فرجعوا به مستحقين له .

التوراة هي كتاب الله الذي نزل على اليهود ، غير أن التوراة قد انتهى أمرها، بمضي الزمن إلى أن صارت عندهم بمثابة وسيلة للتبرك أو مفخرةٍ شعبيةٍ فحسب ، ومع أن اليهود ما زالوا متمسكين بها كرمزٍ للنجاة والمجد القومي، إلا أنهم قد عزلوها عن مركزها الأصلي؛ وهو الذي يتمثل في أنها ((كتاب الإرشاد والهداية العملية في الحياة)) ، ولقد انبعث فيهم الكثير من الأنبياء، بين فترةٍ وأخرى بعد موسى عليه السلام مثل النبي يوشع، والنبي داود، والنبي زكريا، والنبي يحيي ..إلخ عليهم السلام حتى خُتم أنبياؤهم بعيسى ابن مريم عليه السلام ، وإنما جاء هؤلاء الأنبياء جميعا لأداء مهمةٍ واحدةٍ؛ هي أن ينصحوا اليهود بأن يمارسوا حياتهم العملية على أساس تعاليم التوراة، ولكن بالرغم من إيمانهم بقدسية التوراة لم يستطيعوا القيام بتكاليفها أو الحفاظ على نصوصها، وراحوا يكذبون أنبياء الله ويكفرون بهم، بل كانوا يقتلونهم آخر الأمر ، وكان السبب في ذلك أن الحياة التي كانوا يعيشونها باسم التوراة، كانت في حقيقة أمرها، حياةً مبنيةً على مجرد شهوات النفس ومنافع الدنيا، حتى وإن كانوا قد ألصقوا عليها رقعةً تحمل عنوان كتاب الله، ومن هنا فإن أنبياء الله عندما كانوا يقومون فيهم بمهمة الدعوة إلى الحق النقي

الخالص؛كان يخيل إليهم أن هذه الدعوة تعمل على إلغاء اعتبارهم الديني،وبالتالي يستيقظ في نفوسهم الكبر والغرور، مما يجعلهم يتصدون للقضاء على وجود الأنبياء أنفسهم، ناهيك عن تصديقهم والاستجابة لدعوتهم.

وقد وقف اليهود في جزيرة العرب هذا الموقف من رسول الله ﷺ ، فبناءً على ما ورد في كتبهم عن صفة النبي الخاتم، كثيراً ما كانوا يقولون للناس إنه إذا بُعث ((ذلك النبي)) انضووا تحت لوائه، وأحرزوا الانتصار على من يعاديه من الكفار والمشركين إلا أن حديثهم هذا لم يكن إلا خطاباً كاذباً كانوا يرددونه لكي يزعموا أنهم الأُمَناء على الدين ولذلك فعندما ظهر ((ذلك النبي)) انكشف النقاب عن حقيقة حالهم؛ بحيث استبدت الجاهلية بهم وحالت دون اعترافهم بصدق نبيٍ بُعث في غير شعبهم ، وبما أنهم ظلوا عاجزين عن إبطال الأدلة الواضحة التي كانت ترد في القرآن لتأييد صدق النبي – عليه الصلاة والسلام – بدأوا يقولون: إن قلوبنا في أكنّةٍ أي : إننا لن نترك أبداً ذلك الدين الذي توارثناه عن آبائنا متأثرين في ذلك بما يعرض محمد علينا من زخرف القول وطلاوة البيان .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ: جعلتموه إلها معبودا .

لَوْ يُعَمَّرُ: لو يطول عمره .

إن عدم استعداد اليهود لقبول دعوة القرآن، واتخاذهم موقف الرفض والعناد نحوها، يرتبط بإحساسهم أنهم ما زالوا على الحق كما كانوا أيام موسى عليه السلام وأنهم ينتمون إلى أكبر جماعةٍ بشريةٍ ظهر فيها دعاة الحق، أي بنو إسرائيل، غير أن ذلك لم يكن في جوهره إلا الولاء الطائفي الذي كانوا قد اعتبروه - خطأ - مرادفاً للولاء للحق والتمسك به إنهم كانوا قد أحلّوا ((الحق الطائفي)) محل ((الحق الخالص)) ، ولذا فعندما ظهر الحق في صورته النقية الخالصة من كل شوبٍ لم يبادروا إليه، ولم يتلقوه بالقبول ولو كان هدفهم المنشود هو الحق الخالص، لما تعذر عليهم أن يدركوا أن نزول القرآن هو حادث قد تحقق طبقاً لنبوءات التوراة نفسها التي هي كتابهم المقدس، وأنه بعد تمام نزول القرآن فإن القرآن وحده هو ((الكتاب الحق)) وليس مذهبهم الطائفي .

إن قضيتهم ليست في جوهرها قضية الولاء للحق، والدليل على ذلك هو ما نجد في تاريخهم أنفسهم أنهم قتلوا الأنبياء المبعوثين في طائفتهم بالذات؛ مثل يحيى عليه السلام ، ولم يكن ذلك إلا لأنه تناول حياتهم بالنقد والتوجيه، ولأنهم ((كانوا يشهدون عليهم؛ لكي يعودوا بهم إلى الله ربهم)) (سفر نحميا) ، يضاف إلى ذلك أن ما أظهره الله على يد موسى عليه السلام من المعجزات والخوارق لم يُبق أي مجالٍ للشك والارتياب في نبوته، ولكن في أثناء فترة إقامته بجبل الطور التي استغرقت أربعين يوماً ما لبثوا أن اتخذوا العجل معبوداً لهم؛ إذ لم يعد نفوذه الشخصي ماثلاً أمامهم، وقد رُفع فوق رؤوسهم الجبل، ولكن بالرغم من ذلك لم يُقروّا بالعهد إلا إقراراً لسانياً مؤقتاً، ولمجرد النجاة بأنفسهم من

الهلاك، وقد ظلت حياة أكثرهم بعد ذلك تسير على خط المعصية والفجور كما كانت تسير من قبل ، ولو أنهم كانوا عبدةً لله ومحبين إياه حقاً، لاتجهت أنظارهم واهتماماتهم كلها نحو دنيا الله التي تأتي بعد الموت، بينما الواقع أنهم غارقون في حب هذه الدنيا الحالية أكثر من كل شيء .

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

نَّبَذَهُ: طرحه ونقضه.

لقد أصاب اليهود في الزمن القديم عقوبات شديدة قاسية، مرةً بعد أخرى، نتيجةً لبغيهم المستمر، وطبقاً لما جرت عليه سنة الله فقد كان يتم إنذارهم مسبقاً بكل عقوبةٍ نازلةٍ، وكان الملك جبريل هو الذي يتوسط بين الله وأنبيائه لنقل هذا الخبر، ثم يقوم الأنبياء بإعلام شعوبهم بذلك، والدرس الجوهري الذي يكمن في مثل هذه الوقائع هو أنه يجب على المرء أن يحترز مِنْ معصية الله أشد احترازٍ؛ حتى لا يحل عليه العذاب الإلهي، غير أن اليهود لم يستطيعوا استلهام أي درسٍ كهذا من تلك الوقائع، وبدلاً من ذلك أخذوا يقولون : إن الملك جبريل هو عدوّنا؛ فهو دائماً ينزل بأوامر وأحكامٍ ضدنا، ولما أعلن رسول الله ﷺ أن الله تعالى قد أوحى إليه بواسطة جبريل، بدأ اليهود يقولون: إن جبريل هو عدونا القديم ، وهذا هو السبب في أنه أوصل النبوة، (التي لا يستحقها إلا الشعب الإسرائيلي وحده في رأيهم) إلى رجلٍ من قوم آخرين غيرنا، والحق أنه

يتشاغل بمثل هذا الكلام الفارغ إلا الذين يمارسون حياتهم على أساسٍ من الفسق والانفلات ، وهكذا كان شأن اليهود الذين كانوا يعيشون في مستوى عبادة النفس، والانسياق وراء الشهوات، والتقليد الأعمى للآباء، والعصبيات العرقية والشعبية، وفي الوقت نفسه كانوا يتظاهرون بإقامة بعض طقوس الدين ومراسمه الشكلية، لكي يزعموا أنهم محافظون على الدين الإلهي ولم ينحرفوا عنه قيد شعرة .

إن الذين يتورطون في مثل هذا التدين الكاذب، تكون الدعوةُ إلى الدين الحق الخالص مبعث الاستياء بالنسبة إليهم ، إذ إن دعوةً كهذه تبدو لهم وكأنها تحرمهم من سيادتهم ، ومن هنا يثور ثائرهم، ونتيجةٍ لهذه الثورة يتكلمون بكلامٍ لا يكون وراءه أي رصيد من المعنى .

ومما هو معلوم بالبداهة أن نزول الملائكة، وبعثة الرسل والأنبياء، كل ذلك إنما يحصل وفق المشيئة الإلهية، ولما كانت هناك دلائل صريحة تثبت أن الشيء الذي نزل على النبي العربي ﷺ هو الشيء نفسه الذي كان قد نزل على إبراهيم، وموسى، وعيسى - عليهم السلام - وأنه مطابق كل المطابقة لما ورد في الصحف السماوية السابقة من بشائر ونبوءاتٍ؛ فإن ذلك برهان قاطع على أنهَّ من عند الله تعالى، فضلاً عن مئات البراهين الأخرى.

﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

تَتْلُو الشَّيَاطِينُ: تقرأ . أو تكذب من السحر .

نَحْنُ فِتْنَةٌ: ابتلاء واختبار من الله .

خَلاقٍ: نصيب من الخير ، أو قدر .

إن ظاهرة الفساد والانحراف التي تصيب طائفةً أمينةً على الكتاب السماوي، كانت ولا تزال من نوعٍ واحدٍ على مر الزمن ألا وهو : ((أن يُبحث عن سر النجاة الأخروية؛ التي يدور أمرها كله حول العمل الصالح وحده، في البطالة وترك العمل)) . إن كلام الله نداء للعمل، غير أن أمةً ما، إذا مُنيت بالانحطاط والزوال، فلا يلبث أفرادها أن يعدّوا تقييد ((الكلام المقدس))كتابةً، أو ترديده ترديداً لسانياً محضاً، وَصفةً غامضةً مكتنفةً بالأسرار يمكن بها الحصول على البركات بجميع أنواعها، وتلك هي التربة النفسية التي ينشأ ويترعرع فيها السحر والكهانة والعمليات الروحية المختلفة ؛ لأن الذين يريدون أن يدخلوا الجنة عن طريق أشياء كالطلاسم يأخذون في إحراز الدنيا هي الأخرى عن طريق الطلاسم والتعاويذ، كما أن المتشبثين بالاعتقاد في الأولياء والصالحين حاسبين إياه وسيلةً للنجاة، سيتوسلون بالأرواح لحل مشكلاتهم الدنيوية، والمؤمنين بالتأثير السحري الغامض لصنوف الوظائف يقومون برسم خططٍ وبرامج

البعث الديني من خلال الشعوذة السياسية.

وما إن أُصيب اليهود بالانحطاط، وبلغوا من البطالة وترك العمل، ومن الإيمان بالخرافات هذا المبلغ، حتى ظهر بينهم أناس احترفوا السحر والكهانة، ولكي تروج بضاعتهم وتنفق سوقهم لجأ هؤلاء الظَلَمة الخبثاء إلى أن نسَبُوا فنهم ذاك إلى سليمان النبي عليه السلام، فقالوا إن القدرة غير العادية التي كان سليمان يسخر بها الشيطانين والرياح إنما كانت حقيقةً ثمرة علمه بفنون السحر؛ وإننا استطعنا العثور على مكنوزات هذا «العلم السليماني» بواسطة بعض الشياطين، وهكذا فقد نال علم السحر وفن العمليات بعد نسبتها إلى سليمان عليه السلام قبولاً وانتشاراً واسعين في اليهود.

ولما كان قوم لوطٍ عليه السلام متورطين في رذيلة اللواط؛ جاءتهم الملائكة ابتلاءً في صورة ولدانٍ حسان الوجوه، وامتُحن اليهود في بابل، وأُرسل إليهم ملكان في زيّ الدراويش، اللذين كانا يُعَلِّمان هناك فنون العمليات، غير أنهما كانا يقولان إنما نحن فتنة وامتحان لكم، ولكنهم بالرغم من هذا التنويه المستمر، لم يلبثوا أن تهافتوا على تعلم هذا الفن حتى استخدموه لتحقيق الأغراض والمطالب اللاشرعية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُم: باعوا به أنفسهم .

لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا: كلمة سب وتنقيص عند اليهود .

وَقُولُوا انظُرْنَا: انظر إلينا ، أو انتظرنا ، وتأن علينا .

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ: ما نُزِل ونَرْفع من حكم آية أو التعبد بها .

نُنسِهَا: نمحها من القلوب والحوافظ .

وَلِيٍّ: مالك ، أو متول لأموركم .

سَوَاءَ السَّبِيلِ: قصد الطريق ووسطه .

ألف الناس في العادة أن يعاندوا كل رجل اختصه الله بإدراك الحق، وأقامه داعياً إليه، والسبب في ذلك يرجع إلى أن الناس يعدون دعوته مما ينتهي بإلغاء كل ما لهم من يعدون مكانةٍ ، وأما بالنسبة لليهود فقد كان سبب المعاندة متوافراً بدرجةٍ أشد ما يكون؛ لأنهم كانوا يعتبرون النبوة حقاً شعبياً لهم، إذ لم يكن هنالك شيء أشد وطأةً عليهم من أن يبعث الله رسوله في أي شعب آخر غير الشعب اليهودي ، وقد جرت عادة اليهود على أن يقوموا بين حينٍ وآخر بإثارة ألوانٍ من الجدل والمناقشات الدينية حول دعوته ﷺ ، حتى يتمكنوا من تشكيك الناس في أن كل ما يعرض عليهم الرسول ﷺ لا يعدو أن يكون مجرد حدسٍ أو ابتكارٍ ذاتيٍ لأحد الأشخاص، وليس شيئاً نزل من عند الله تعالى ، ومن ذلك أن بعض الأحكام القانونية التي وردت في القرآن كانت تختلف عن إصدار أحكام التوراة ، فاستناداً إلى ذلك كانوا يقولون : هل يُعقل أن يكون الله هو الآخر قد أخطأ في أحكامه فأمر مرةٍ بحكمٍ، ثم أصدر بعد ذلك في شأن القضية نفسها حكماً آخر مبايناً للحكم الأول ؟! ولقد زرع اليهود مثل هذه الشكوك والشبهات ونشروها بين الناس إلى حد أن كثيراً من المسلمين البسطاء أنفسهم بدأوا يسألون النبي ﷺ عنها في حيرةٍ وارتباكٍ .

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان اليهود حين يحضرون مجالس النبي ﷺ، يستخدمون في أثناء مخاطباتهم ألفاظاً تنم عن التنقيص والنيل من عظمة شأنه ﷺ، فمثلاً إذا أرادوا لفت انتباهه ونظره ﷺ إليهم، لم يقولوا: «انظرنا»، وهو تعبير واضح الدلالة على المقصود من دون لبس. بل يقولون بدلاً من ذلك: «راعنا» ومن السهولة أن يُحول هذا اللفظ إلى «راعينا» بمعنى: «من يرعى الماشية لنا»، أو أن يُبدل بـ«راعن» - بحذف الألف من آخر الكلمة - مشتقةً من الرعونة التي تعني الحمق.

فمن خلال هذه الآيات تم توجيه المسلمين إلى أمورٍ لابد من أخذها بعين الاعتبار دائماً وهي:

أ _ يجب أن تستخدموا في أثناء محادثاتكم ألفاظاً وعباراتٍ صريحةً واضحة الدلالة، فلا يليق بكم أن تستخدموا كلاماً ملتبساً ذا معنَيين؛ يمكن أن ينطوي على مفهومٍ شائنٍ ممقوتٍ.

ب _ أن تُصغوا إلى كل ما يُلقى عليكم من حديث بدقةٍ وإمعانٍ، وحاولوا جهدكم أن تفهموه وتقفوا على معانيه.

جـ_أن الإكثار من السؤال من شأنه أن يضل المرء عن سواء السبيل، ولذا فليكن همكم بما فيه العبرة والموعظة بدلاً من القيل والقال.

د _أن تهتموا بصيانة إيمانكم والحفاظ عليه، خشية أن تُحرموا من الإيمان نفسه نتيجةً لأي تصرفٍ خاطئ من تصرفاتكم.

هـ _ إياكم أن تحقدوا - أو تحسدوا - على أحدٍ في الدنيا، فيما إذا وجدتم عنده من خيرٍ ليس عندكم، إذ إن ذلك مما حباه الله إياّه وفق مشيئته وإرادته المطلقة،وهو تعالى لا يُسأل عما يفعل وهو العليم الحكيم.

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ

إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

أَمَانِيُّهُمْ: شهواتهم ومتمنياتهم الباطلة.

أَسْلَمَ وَجْهَهُ: أخلص نفسه أو قصد عبادته لله.

مع أن صوت القرآن لم يكن صوتاً مألوفاً بالنسبة لكثيرٍ من الناس، غير أن عدداً كبيراً لا يُستهان به من هؤلاء كانوا لا يزالون يدخلون في دائرته لكونه متسقاً وصدى قلوبهم ، ولقد اشتدت وطأة هذا الوضع على اليهود وبات يقض مضاجعهم؛ إذ كان ذلك يعني امتداد نفوذ الإسلام وتقدمه نحو الأمام ، مع أنهم كانوا غير مكترثين به لأنه - في نظرهم - شيء تافه غير ذي بالٍ ، فما لبثوا أن قاموا باستثارة حماسة المشركين وتأليبهم على محاربة الإسلام وأهله، ومن جانبٍ آخر عمدوا إلى دسّ ألوانٍ من الشبهات والمغالطات في صفوف المسلمين الجدد، ليتخلخل اعتقادهم ويسوء ظنهم بالقرآن وصاحبه، فيرتدوا عن الإسلام إلى دين آبائهم السابق، وكان طبيعياً أن ينزعج المسلمون ويثور غضبهم على صنيع اليهود ذاك ، إلا أن الله تعالى قد منعهم من ذلك ، وأمرهم بالإعراض الكلي عن إثارة أية مناقشةٍ مع اليهود ، أو القيام بأي إجراءٍ عنيفٍ ضدهم في المرحلة الراهنة ، وإنما ينبغي لهم في هذا الشأن أن يتوكلوا على الله وحده، ويفوضوا الأمر كله إليه، وينتظروا حتى يأتي الوقت الذي يُحدث الله فيه تغييراً في الظروف والملابسات، فيمكن اتخاذ خطوةٍ حاسمةٍ ضدهم ، وأما في الوقت الحالي فيجب عليهم - على المسلمين- أن يصبروا، ويركزوا كل اهتماماتهم على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فإن الصبر يحول دون قيام المرء بتحركاتٍ سلبيةٍ بدافع رد الفعل؛مما لا

يعود عليه أبداً إلا بنتائج عكسية، والصلاة تربط المرء بالله تعالى، وإشراك المرء إخوانه الآخرين في ثروته المالية يؤدي إلى إيجاد جّوٍ يسود فيه روح الوحدة والتضامن والنصح المتبادل .

ولقد كان اليهود يقولون لحديثي العهد بالإسلام آنذاك: إنكم إذا أبيتم إلا استبدال دينٍ بدين آبائكم فاعتنقوا إذن الديانة اليهودية أو النصرانية ، إذ إن الجنة وقف على اليهود والنصارى الذين ينتمون إلى طائفةٍ ظلت - منذ قديم الزمان - طائفة الأنبياء والرسل ، فقيل رداً على زعمهم هذا : ليس الانتماء إلى أي طائفةٍ من الطوائف مما يجعل أحداً يستحق دخول الجنة ، إن قرار الجنة في حق أحدٍ من الناس إنما يتم تحديده على أساس ما يأتيه من عملٍ، وليس على أساس الفضيلة الطائفية ، ومعنى الإحسان هو إتيان عملٍ ما على نحوٍ جميلٍ، وإحسان الإسلام يعني أن يكون استسلام المرء وخضوعه لله .

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾

خِزْيٌ: ذل وصغار ، وقتل وأسر .

فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ: جهته التي رضيها وأمركم بها.

سُبْحَانَهُ: تنزيها له تعالى عن اتخاذ الولد .

لَهُ قَانِتُون: مطيعون منقادون له تعالى .

بَدِيعُ: مبدع ومخترع .

قَضَى أَمْرا: أراد شيئا ، أو أحكمه أو حتَّمه .

كُن فَيَكُونُ:احدُث فهو يحدث.

اتخذ اليهود من الانتساب إلى الأنبياء والصالحين معياراً للحق، وانطلاقاً من هنا فقد بدا لهم أن أمتهم هي وحدها على الحق، وأما ما عداها من الأمم الأخرى فإنها ليست من الحق في شيء ، وأما النصارى فقد رأوا أن سر تميزهم عن غيرهم في أن الله تعالى قد أرسل إليهم ((ابنه الوحيد))، وزعم مشركو مكة أنهم يمتازون بكونهم سدنة بيت الله الحرام ، وهكذا كل طائفةٍ من الطوائف اتخذت لنفسها معياراً مصطنعاً للحق والصدق .

ولاَ جَرَمَ أنها عندما كانت تنظر في ضوء هذا المعيار المصطنع، تجد ذاتها على الحق، وتجد الآخرين على الباطل، غير أن واقعهم العملي يُثبت عكس ذلك تماماً ، فلقد كانوا طرائق قدداً ، ما إن تسنح الفرصة لفرقةٍ، حتى تصدّ الفرق الأخرى غيرها عن البيت المخصص لعبادة الله ، وهكذا كانت تتسبب في خراب بيوت الله وتعطيلها ، مع أن مكان العبادة هو الموضع الذي يدخله الإنسان وفرائصه ترتعد من هيبة الله وجلاله ، فإن كان هؤلاء ربانيين حقاً، إذن كيف يُتصور أن يقفوا في وجه أي عبدٍ جاء لعبادة الله، أو يتصدوا لإيذائه وإزعاجه إذ كان المحتمل أن يكونوا وجلين خاشعين استشعاراً لعظمة الله وكبريائه؟! فكيف يُحتمل إذن أن يصدر عنهم هذا النوع من البغي والطغيان؟!

وقد قاس هؤلاء الذات الإلهية على الذات البشرية ، فكما أنه من المستحيل أن يوجد

أي إنسان في جهة الشرق والغرب معاً وفي آنٍ واحدٍ ، زعموا - بناء على هذا القياس - أن الله تعالى أيضاً لابد أن يكون موجوداً في جهةٍ واحدةٍ مخصوصةٍ ، ولا شك أن الله تعالى قد حدّد جهةً معينةً لكي يكون التوجه إليها في أثناء عبادته إلا أن ذلك يرتبط بالضرورة التنظيمية للعبادة، وليس لأن الله تعالى يوجد في تلك الجهة المعينة بالذات ، وقياساً على البشر كذلك زعموا أن لله ولداً ، على حين أن الذات الإلهية تعالت وتنزهت عن مثل هذه الأشياء علواً كبيراً ، وإنه ليس للذين يحاولون أن يصبغوا ديانةً مزيفةً مزعومةً بصبغة دين الله على هذا النحو، ليس لهم عند الله شيء سوى الخزي والعذاب الأليم .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

إن عباد الله الذين أرسلهم الله تعالى لإبلاغ دينه للناس، ظلوا يواجهون نوعاً واحداً من رد الفعل على اختلاف العصور، ويتمثل في التساؤل الآتي : « إذا كنتم مندوبين لله حقاً كما زعمتم، فلماذا إذن لا تملكون من خزائن الدنيا شيئاً ؟! » وإنما كان هذا الشك يختلج في صدور ذوي الاتجاهات والنزعات المادية؛ الذين تنحصر كل معاني العظمة عندهم في مظاهر العظمة المادية وحدها ، ومن هنا فقد كانوا يريدون لمندوب الله أيضاً أن يكون على أوفر نصيبٍ من هذه العظمة ، وإذا رأوا أن حياة الداعية إلى الحق ليست من مظاهر هذه العظمة في شيء، لم يلبثوا أن كذبوه ورفضوا دعوته ، إذ إن عقولهم لا

تدرك أن «رجلاً عادياً» يمكن أن يكون هو الشخص الذي وقع عليه اختيار مالك السموات والأرض لإبلاغ رسالته للناس، ومع أن حياة أولئك الأخيار من عباد الله وكلامهم بحيث تتجلى فيها آيات الله تعالى واضحة، وبعبارةٍ أخرى إن «العظمة المعنوية» كانت تتوافر فيهم أبلغ ما يكون، إلا أن مثل هذه الأشياء لم تكن تقع تحت أبصار القوم، ولذلك فلم يكونوا يستعدون للاعتراف بعظمتهم وفخامة شأنهم، وبالرغم من كون الدليل موجوداً هناك في أكمل صوره وأنصعها، لم يكن يتحول إلى جزءٍ من أذهانهم؛ لأنه لم يكن يتوافق مع شاكلتهم النفسية والمزاجية.

وقد كان اليهود والنصارى - في قديم الزمان - ممثلين للديانة السماوية، غير أن الدين، بعد ما أصابه الانحطاط، لم يلبث أن تحول إلى مذهبٍ طائفي، فراحوا يعدون الارتباط الدائم بطائفتهم ديناً، والانفصال عن الطائفة مُرُوقاً عن الدين، ومجرد الانضمام إلى طائفتهم أو عدم الانضمام إليها صار لديهم معياراً للحق وغير الحق، ولذا فعندما ظهر الدين أمامهم في صورته النقية الخالصة،لم تكد نزعتهم المذهبية الطائفية تستطيع قبوله أو استساغته، والحقيقة هي أن الدين الخالص لن يتلقاه بالقبول أبداً إلا الذي كانت فطرته لا تزال تنبض بالحياة،وأما الذين انطفأت جذوة فطرتهم ولم يعد فيها نور،فلا أمل يرجى من هؤلاء، ولا يمكن أن يدخل أي نوعٍ من التغيير أو التعديل في الدين رجاء أن يُصبح جديراً بالقبول عند أمثال هؤلاء الناس.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

العَالَمِينَ: عالمي زمانكم.

لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ: لا تقضي ولا تؤدي نفس.

عَدْلٌ: فدية.

ابْتَلَى: اختبر وامتحن.

بِكَلِمَاتٍ: بأوامر ونَوْاهٍ.

فَأَتَمَّهُنَّ: أداهن لله تعالى على الكمال .

إن اختيار بني إسرائيل - كأمةٍ - إنما كان من أجل الاضطلاع بمهمةٍ جليلةٍ،تتمثل في قيامهم بدعوة جميع شعوب الأرض إلى الله،وإطلاعهم على حقيقة أنهم محاسبون ومسئولون عند مالكهم عن كل عملٍ يمارسونه في هذه الحياة الدنيا، ولم يزل يُبعث فيهم الأنبياء بين فترةٍ وأخرى لترشيد هذه المهمة وتسديد طريقها، من سيدنا إبراهيم، إلى يعقوب ، ويوسف، وموسى، وداوود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى، .. إلخ - عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه - ولكن ما إن أصيب بنو إسرائيل بالانحطاط والزوال في العصور اللاحقة، حتى حملوا هذه ((الفضيلة الوظيفية)) على أنها ((فضيلة عرقية وطائفية)) ففقدوا أهليتهم وجدارتهم .

إن بعثة النبي العربي في السلالة الإسماعيلية كانت - عند بني إسرائيل - إيذاناً بصرف بني إسرائيل عن مركز الفضيلة ، إن الذين كانوا من بني إسرائيل ربانيين حقاً، لم يلبثوا أن عرفوا أن الكلام الذي يقدمه النبي العربي إنما هو كلام منزل من عند الله تعالى ، وأما الذين كانوا قد أحلوا العصبيات المذهبية الطائفية محل الدين فإنه لم يعد بإمكانهم الاعتراف بوجود أية فضيلة خارج ذواتهم ، وقد تم تحذيرهم على لسان النبي العربي أنه في اليوم الآخر لن يكون هناك وزنٍ ولا قيمةٍ إلا للإيمان الحقيقي والعمل الصادق ، نعم! قد يحدث في هذه الدنيا أن يأخذ شخص تبعة شخصٍ آخر على عاتقه، وقد تنفع شفاعة ذي جاهٍ في بعض شئون الحياة، وفي بعض المواقف قد يتمكن المرء من الخلاص عن طريق دفع العوض أو الافتداء بشيءٍ،وقد يصادفه مُعين يقوم بمساعدته على تخليصه مما يكون قد تورط فيه، غير أن أي شيء من هذا النوع لا يغني عن أحدٍ في الآخرة فتيلاً .

إن الآخرة ليست بالوراثة العرقية لطائفةٍ بعينها ، إنما هي يوم العدالة الإلهية التي لا تعرف المحاباة ولا المجاملة ، لم يُمنح سيدنا إبراهيم عليه السلام ما مُنح من درجة الفضيلة والشرف إلا بعد أن مر بامتحانٍ عسيرٍ شاقٍ، وبالتالي ثبت كمال صدقه وغاية إخلاصه في طاعة الله تعالى ، وتلك هي سنة الله في أفراد ذريته من بعده كذلك ، فمن يكن منهم تتوافر فيه كل الشروط العملية المطلوبة، سينال حظه من هذا الوعد الإلهي ، وأما الذي لم يتمكن من إثبات جدارته وصلاحيته في ميزان العمل، فسيلاقي المصير نفسه الذي قرره الله تعالى للمجرمين أمثاله، وإذا كان سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يتم تعيينه في منصب الإمامة إلا بعد اجتيازه بنجاحٍ سلسلةً من الاختبارات الصعبة القاسية للغاية ، فإن هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن منصب القيادة والإمامة لا يتسنى الوصول إليه إلا عن طريق التضحيات وحده، والواقع أن الشخص الذي يختار غايةً أو هدفاً بمقابل تضحياتٍ جسامٍ يكون أسبق وأسرع من غيره في سبيل ذلك الهدف، ولذا فمن الطبيعي أن يكون هو الذي يتولى آخر الأمر زمام قيادته .

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾

مَثَابَةً لِّلنَّاسِ: مرجعا أو ملجأ أو مجمعا أو موضع ثواب لهم .

وَعَهِدْنَا: وصينا أو أمرنا أو أوحينا .

بَيْتِيَ: الكعبة المشرفة بمكة المكرمة .

أَضْطَرُّهُ: أدفعه وأسوقه وألجئه .

كل عامٍ يفد المسلمون إلى بيت الله الحرام، تاركين أوطانهم من جميع أنحاء العالم ، فلا يجوز هنا لأحدٍ أن يبغي أو يعتدي على أي كائنٍ حي ، فقد جُعل حَرَم الكعبة مركزاً دائماً للعبادة، ولذا يكون هناك أقصى اهتمامٍ بتطهيره من كل أنواع الرجس والتلوث، ويُطاف حول الكعبة ، ويتم هناك ذكر الله تعالى بعيداً عن هموم الدنيا وضوضائها، ويُشتغل هناك بالركوع والسجود لله تعالى ، ولقد كانت هذه المنطقة في الزمن القديم أكثر مناطق العالم جَدْباً وأفقرها إلى أسباب العيش؛ لأنها - بسبب أراضيها الرملية التربة وكونها مليئةً بهضابٍ قاحلةٍ جرداء - لم تكن تصلح لأي نوعٍ من الزرع والنبات، وكانت هذه المنطقة غير مأمونةٍ للغاية ، وقبل أربعة آلاف سنةٍ أُمِر سيدنا إبراهيم عليه السلام بأن يذهب بأسرته إلى هذه المنطقة ويُسكنها هناك ، ولقد قام سيدنا إبراهيم عليه السلام بتنفيذ ما أُمِر به تنفيذاً فورياً ومن غير ترددٍ ، وعندما فرغ من نقل أسرته إلى هذه المنطقة الجدباء توجه إلى الله تعالى داعياً:﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ وقد استجاب الله تعالى لدعوة إبراهيم، فلم تزل هذه المنطقة نموذجاً رائعاً لوفرة الرزق وانتشار الأمن والسلام في أرجائها.

يجب على المؤمن أن يعيش في هذه الدنيا أينما كان، بحيث لا يغيب عن باله للحظةٍ واحدةٍ أنه راجع إلى الله لا محالة ، وعليه ألا يؤذي أحداً ممن يتعايش معهم في هذه الدنيا، ويجب عليه أن يعلم أن الأرض كلها موضع عبادة الله عز وجل؛ ولذا فعليه ألاّ يُدنسه من أرجاسه وأقذاره ، ويجب أن تدور حياته كلها حول الله سبحانه وتعالى ، وإنه وإن كان يعيش - من حيث الظاهر - في هذه الدنيا،لكن يجب أن يكون قلبه موصولا بالله تعالى متوجهاً إليه دائماً ، وينبغي أن يخضع أمام الله بكامل وجوده ، ثم عليه أن يكون مستعداً تمام الاستعداد لكل ما يقتضيه الدين من تضحيةٍ، حتى ولو كان ذلك ترك الأهل والعيال منفردين في ((صحراء مجدبةٍ)) وبعدما يفرغ من تنفيذ ذلك فليتوجه إلى الله سائلاً عونه ونصرته، ولا عجب أن يُفجِّر الله لعبده ينابيع الرزق في صحراء قاحلة جدباء.

إن زينة الحياة الدنيا وزخارفها - ولو حصل عليها أحد باسم الدين - لا تدل بالضرورة على أن الله قد اختار صاحبها لمنصب الإمامة والقيادة ، إذ المتاع الدنيوي ليس إلا لغرض الامتحان، وكل بني آدم ينال حظة منه على السواء ، بينما الإمامة تعني أن يتم اختيار عبدٍ من عباد الله ليقوم بتمثيله تعالى بين شعوب الأرض .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾

مُسْلِمَيْنِ لَكَ: منقادين خاضعين مخلصين لك .

مَنَاسِكَنَا: عرفنا معالم حجنا أو شرائعه .

وَيُزَكِّيهِمْ: يطهرهم من الشرك والمعاصي .

لقد قرر الله جل شأنه أن يتخذ من الحجاز مركزاً عالمياً للدعوة الإسلامية ، واختار سيدنا إبراهيم وولده -عليهما السلام - لكي يقوما بإنشاء هذا المركز وتنظيمه ، والكلمات التي كانت تفيض من لسان إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - خلال بناء الكعبة وهي من ناحية دعاء، ومن ناحيةٍ أخرى إعلانٌ بانضمام روحَين اثنين إلى الخطة الإلهية العظيمة ، ومثل هذا الدعاء يكون المقصود الإلهي بالذات ، ولذا فقد تقبله الله تعالى قبولاً حسناً، فانفجرت من الصحراء العربية الجدباء عين الإسلام الأبدية ، وقد جعل الله تعالى قلوب بني إسماعيل راغبةً ميالةً إلى خدمة دينه على وجهٍ خاصٍ؛ مما أدى إلى قيام دعوةٍ إسلاميةٍ منتشرةٍ بينهم ، وبهم أرشد الله تعالى عباده إلى طريق الحياة المرضية عنده، والتي تستوجب إقباله ورحمته على عباده ، ثم بُعث في بني إسماعيل أنفسهم ذلك النبي الخاتم الذي قام - لأول مرةٍ في التاريخ - بتحقيق العمل النبوي في

صورة نموذجٍ تاريخيٍ كاملٍ .

إن أول أعمال النبي ((تلاوة الآيات)) ، ومعنى ((الآية)) : العلامة .. أي الشيء الذي يصلح أن يكون دليلاً على شيء آخر، ولقد أودع الله تعالى فطرة الإنسان وهذا العالم الخارجي، عدداً لا يُحصى من الآيات للوصول إلى معرفته تعالى ، غير أن هذه الآيات توجد في صورة رموزٍ وإشاراتٍ ، ويتناول الرسول تلك الإشارات بالشرح والإيضاح ، فهو يمنح الإنسان ذلك البصر الذي ينظر به في آثار الربوبية متجليةً في كل شيء، والمراد بالكتاب هو ((القرآن)).

إن العمل الثاني من أعمال النبي: أن يكون ((مهبط الوحي الإلهي))، فهو يتلقاه من عند الله تعالى ثم يقوم بإبلاغه إلى الناس ، ومعنى الحكمة : ((البصيرة)) إن المرء حين يظفر بذلك النظر الذي يُبصر به آيات الله تعالى، وحين يقوم بصياغة عقله وعواطفه في قالب التعليمات القرآنية، فيشتعل في داخله نور فكري، ويرتفع مستواه الشعوري إلى مستوى الحقيقة العليا، وعندئذٍ يتمكن من الوصول في كل أمرٍ إلى ذلك القرار الصائب المطلوب عند الله تعالى ، وأما ((التزكية)) فتعني : تطهير شيء من كل العناصر غير الملائمة، حتى يمكنه الوصول إلى كماله الطبيعي في مناخٍ ملائمٍ منسجمٍ ، وآخر ما يستهدف النبي ويسعى جاهداً نحوه هو أن يقوم بإعداد جيلٍ تكون صدورهم معمورةً بالاعتقاد في الله تعالى وحده، وخاليةً من الاعتقاد في كل ما سواه، وأن تكون أرواحهم صافيةً نقيةً متحررةً من العقد النفسية ، وبالجملة فالنبي يعمل على إنشاء أفرادٍ مستعدين ليتلقوا ذلك الرزق الرباني الذي أودعه الله تعالى هذا الكون لعباده المؤمنين به .

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ

حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

يَرْغَبُ عَن: يزهد وينصرف عن .

سَفِهَ نَفْسَهُ: جهلها وامتهنها واستخف بها ، أو أهلكها.

أَسْلِمْ: انقد.أوأخلص في العبادة لي.

الدِّينَ: دين الإسلام صفوة الأديان .

خَلَتْ: مضت وسلفت .

لم تكن دعوة رسول الله ﷺ مختلفةً في حقيقة أمرها عن دعوة إبراهيم عليه السلام غير أن اليهود الذين كانوا يعتزون بكونهم أتباع سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يلبثوا أن صاروا أكبر المعارضين لدعوته ﷺ ، ومردّ ذلك إلى أن الملة الإبراهيمية التي قام النبي العربي بدعوة الناس إليها كانت تتمثل في ((الإسلام)) وهو يعني الاستسلام المطلق والخضوع الكامل لله سبحانه وتعالى ، ولقد أكد القرآن الكريم أن إبراهيم كان يدين بدين الإسلام، وأنه لم يُوصِ أبناءه إلا بذلك الدين ، وعلى العكس من ذلك فإن الدين الذي عزاه اليهود إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام كان يخلو تماماً من التأكيد على ضرورة الاستسلام والخضوع لله ، حيث الجنة تصير مكفولةً بمجرد أوهامٍ وتخيلاتٍ رخيصةٍ، ولم تكن معها أية حاجةٍ ماسةٍ إلى أن يقوم المرء بتغيير حياته المتحررة المنطلقة من كل القيود والالتزامات ، وإن النجاة – طبقاً لدين النبي العربي ﷺ كان يدور أمرها كله حول العمل وحده ، في حين ظن اليهود أن في مجرد الانتساب إلى((طائفة أصفياء الله))والاعتقاد فيهم كل غنىً وكفايةٍ للحصول على النجاة ، فالدين في نظر الأول عبارة عن التعليمات السماوية، وفي

نظر الأخير عبارة عن مجرد مجموعةٍ طائفيةٍ اتخذت شكلاً معيناً تحت التقاليد العنصرية والتخيلات القومية .

إن الانتساب إلى الصالحين والأتقياء - سواء كانوا ممن مضوا أو ممن لا يزالون على قيد الحياة - ربما يبعث المرء على الاطمئنان بأنه سيُحشر في زمرتهم، وأن نقصان عمله سيتم تلافيه بوفرة أعمالهم ، وقد ذهب اليهود بهذه الأمنية الحالمة إلى أن وضعوا عقيدة «النجاة المتوارثة » وبالتالي عقدوا كل آمالهم على تقديس سلفهم الصالحين ، غير أن هذا ليس إلا خداعاً نفسياً محضاً، إذ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المدثر : ٣٨] ، ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام:١٦٤] ، فلا يُسأل أحد عن جرائم غيره،كما لا يكون لأحدٍ نصيب من حسنات غيره.. فكل إنسان ينال جزاءه عند الله طبقاً لعمله.. ومعنى قوله: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] : أنكم - ولا شك - ستواجهون عقباتٍ وصعوباتٍ مختلفةً في طريق الاستسلام لله، وسينهدم صرح آمالكم وتمنياتكم الجميلة ، ولكن - مع ذلك كله - يجب عليكم أن تثبتوا على دين الإسلام إلى آخر أنفاسكم .

﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ

نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

حَنِيفاً: مائلا عن الباطل إلى الدين الحق .

وَالأَسْبَاطِ: أولاد يعقوب أو أحفاده عليهم السلام .

صِبْغَةَ اللهِ: الزموا دين الله، أو فطرة الله .

إذا كان رسول الله ﷺ يدعو إلى الديانة الإبراهيمية نفسها، التي كان اليهود والنصارى يّدعون انتسابهم إليها ، إذن فما السبب وراء قيامهم في وجهه ومعارضتهم إياه ؟!

إن السبب في ذلك أن الدين – طبقاً لدعوة النبي العربي ﷺ يتمثل في أن يصبغ المرء حياته كلها بصبغة الله تعالى، وأن يجعل من نفسه إنساناً ربانياً مائلاً عن كل الجهات إلى الذات الإلهية وحدها ، وأما الدين عند اليهود – على عكس ذلك – فلم يكن يعدو أن يكون مجرد رمزٍ للفخار القومي، وبما أن دعوة النبي العربي ﷺ كانت تمثل الضربة القاضية على عقليتهم الافتخارية، لم يلبثوا أن وقفوا في وجه دعوته، وناصبوه العداء .

ومعنى قوله :﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ﴾ [البقرة : ١٤١] إنه لا توارُث فيما يتعلق بالحق ، لقد زعم اليهود أن ثواب حسنات سلفهم الصالحين مما لا يزالون يتوارثونه كابراً عن كابرٍ، كما ظن المسيحيون أن ذنوب الجيل السابق لا تزال تنتقل بالوراثة إلى الجيل اللاحق، إلا أن كل العقائد من هذا النوع باطلة ،إذ إن كل إنسانٍ يُكافأ عند الله تعالى على أساسٍ من عمله، وليس على أساسٍ مما أتى به غيره من عملٍ .

ومعنى قوله: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ﴾ [البقرة:١٣٧] إن

الإيمان الحقيقي المطلوب عند الله تعالى هو الذي يكون مماثلاً لإيمان الصحابة ، والفارق الجوهري لإيمان الصحابة الكرام مرتبط بالوضع الذي آمنوا فيه في عهدهم ، حيث عرفوا النبي محمداً ﷺ وآمنوا به ، على حين أنه كان في بداية تاريخه ، ولم يكن قد اقترنت بشخصية أمجاد تاريخية بَعْدُ، كما كان الشأن بالنسبة للأنبياء السابقين حينذاك ، وهذا يعني أن إقرار الحق المعتد به والجدير بالقبول عند الله سبحانه وتعالى هو الذي يكون المرء قد أدرك الحق في صورته المجردة فأقرَّ به ، وأما إذا كان الحق قد تحول إلى تراث قومي، أو صار مُحاطاً بصروح المجد والعظمة نتيجةً للعمل التاريخي، فإن إقرار الحق عندئذٍ لا يكون إقرار الحق في حقيقة الأمر، بل يكون إقراراً بشيء تحول إلى مفخرةٍ قوميةٍ وضرورةٍ تاريخيةٍ لابد منها.

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾

السُّفَهَاءُ: الخفاف العقول : اليهود ومن شاكلهم في إنكار تحويل القبلة.

مَا وَلاَّهُم: أي شيء صرفهم ؟

عَن قِبْلَتِهِمُ: عن بيت المقدس.

أُمَّةً وَسَطاً: خيارا. أو متوسطين معتدلين .

يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ: يرتد عن الإسلام عند تحويل القبلة إلى الكعبة.

لَكَبِيرَةً: لشاقة ثقيلة على النفوس.

لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ: صلاتكم إلى بيت المقدس .

إن قضية القِبلة تتصل بمظاهر العبادة،دون حقيقة العبادة،والغاية الأصلية من القبلة تنظيم العبادة عن طريق تحديد جهةٍ معينة لأدائها؛ إذِ الجهات كافةً لله سبحانه وتعالى؛فأيما جهةٍ قررها لعباده ستكون وحدها الجهة العبادية المفضلة لديه؛ سواء أكانت جهة الشرق أم جهة الغرب.. غير أن القبلة الأولى - وهي بيت المقدس - كانت قد اكتسبت نوعاً من القدسية نتيجة استمرار العبادة نحوها لمدةٍ طويلةٍ، مما جعل الكثيرين يواجهون صعوبةً بالغةً في تكوين عقليتهم طبقاً للقبلة الجديدة - أي الكعبة - التي تم إعلانها في السنة الثانية من الهجرة.

وقد اتخذ اليهود هذا الحادث - أي حادث تحويل القبلة - ذريعةً للطعن في شخصية الرسول وإشاعة الأقاويل ضد الإسلام، فقال بعضهم : إن بيت المقدس لم يزل قبلة الأنبياء قاطبةً منذ قديم الزمان؛ إذن فما الذي دعا المسلمين إلى الانصراف عن ذلك ؟!، ومن هنا يبدو أن دعوة الإسلام ليست بدعوةٍ إيجابيةٍ، إنما هي حركة سلبية ترمي إلى مجرد العناد والمعارضة لليهود ، وقال البعض الآخر: إن مدعي النبوة هذا في حيرةٍ وارتباكٍ من أمر رسالته، فيأمر بالتوجه نحو بيت المقدس تارةً، ونحو الكعبة تارةً أخرى !! ومنهم من قال : إذا كانت الكعبة هي القبلة أصلاً، فمعنى ذلك أن الصلوات التي أداها المسلمون من ذي قبل، متوجهين نحو بيت المقدس، قد ذهبت كلها سدىً ودون جدوىً؟! وما إلى ذلك من أقاويل وشبهاتٍ أثارها اليهود عند تحويل القبلة ، غير أن عباد الله الصادقين الذين لم يكونوا متورطين في المظاهر والأشكال الظاهرية، سرعان ما أدركوا أن العبرة ليست بجهة القبلة، بل العبرة كلها بالحكم الإلهي وحده، فالله وحده يحدد القبلة، ولا يسع الإنسان إلا أن يتجه نحوها حالاً ، وقد ورد في الروايات أن النبي ﷺ بعد حوالي سبعة عشر شهراً أُمِر بتحويل القبلة، وكان آن ذاك

يصلي بالمدينة مع جماعةٍ من أصحابه وما إن جاء الحكم الإلهي حتى استدار هو والمسلمون – من جهة بيت المقدس – نحو الكعبة، أي من جهة الشمال إلى الجنوب .

إن تحويل القبلة كان علامةً تشير إلى أن الله تعالى قد صرف بني إسرائيل عن منصب الإمامة ، وعين مكانهم الأمة الإسلامية، وأن الكعبة بدلاً من بيت المقدس ستكون مركزاً عالمياً للدعوة إلى دين الله ، والوحدة الداخلية بين عباده المؤمنين ، ووصف الأمة الإسلامية بـ ((الوسَط)) يعني أن المسلمين وُسَطاء بين الله وعباده ؛ لإبلاغ الهداية الإلهية إلى الناس كافةً، لأنهم قد اطلعوا على رسالة الله بواسطة الرسول، وقد صار عليهم الآن أن يقوموا بإيصال هذه الرسالة إلى جميع الشعوب والأمم باستمرارٍ حتى قيام الساعة؛ والشأن أن نجاح المسلمين في الدنيا والآخرة على السواء، متوقف كلياً على أدائهم هذا الواجب .

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ: تلقاء الكعبة

المُمْتَرِينَ: الشاكين في كتمانهم الحق مع العلم به.

لقد اعتاد رسول الله ﷺ أن يتبع سنة الأنبياء السابقين في الشئون التي لم تكن قد نزل

فيها الوحي بعدُ، وطبقاً لعادته تلك كان قد اتخذ من بيت المقدس قبلةً له في البداية؛ ذاك لأن بيت المقدس ظل قبلة أنبياء بني إسرائيل قاطبةً منذ عهد سيدنا سليمان - عليه الصلاة والسلام - إلى أن اختار الله نبياً من غير اليهود، وصار من الضروري تبعاً لذلك، أن يتم فصل الدين عما قد التصق به من تقاليد يهوديةٍ؛ حتى يمكن أن يظهر دين الله تعالى في صورته النقية الخالصة من كل النواحي، وكان النبي ﷺ يترقب - منذ نزول الوحي - تحويل القبلة، إلى أن أُمِر بذلك في السنة الثانية من الهجرة .

ولقد كان اليهود عامةً - وعلماء اليهود خاصةً - على إلمامٍ ومعرفةٍ بهذا القرار الإلهي - المتصل بتحويل القبلة -، فقد تم إخبارهم بذلك مسبقاً على ألسنة كل الأنبياء المبعوثين لهدايتهم ، غير أن اليهود لم يعترفوا بصدق النبي ﷺ والإيمان بما أرسله الله به من الدين الحق، ما عدا أفراد معدودين، مثل عبد الله بن سلام ومخيريق - رضي الله عنهما -، وما منع اليهود من الاعتراف والإيمان إلا اتباعهم أهواء النفس، فلم يرغبوا في الخروج من الحلقة المفرغة للأماني الطائفية التي كانوا يعيشون على أساسها ، وإذا كان الإنكار ناشئاً عن اتباع الأهواء فمن المستحيل أن يؤثر فيه أي دليلٍ أو برهانٍ ، فمثل هذا الرجل يتخذ من إنكار الأدلة وسيلةً ليحصل على ذلك الرزق الرباني الذي لا يتأتى إلا لمن يعترف بالأدلة والبراهين .

وعندما يتم إعلان الحق من عند الله سبحانه وتعالى، فإنه يكون مدعماً بدلائل قاطعةٍ، لا يمكن معها لأحدٍ أن يبقى عاجزاً عن التأكد من صدقه وصحته، ففي مثل هذه الحال لن يقع في الشك والارتياب إلا الذين لا يعرفون الله، ولذا فلم يعد بإمكانهم أن يعرفوا كلمة الله تعالى ، وكذلك الذين يلجأون إلى إثارة الأقاويل والألاعيب اللفظية ضد الحق، زاعمين أنهم قد عثروا على دعائم استدلاليةٍ متينةٍ لإنكار الحق، فسرعان ما يعلمون أن اعتمادهم ذاك لم يكن على شيء سوى دعائم خياليةٍ مزورةٍ، قد اقترضتها أنفسهم بحثاً عن سكينتها الكاذبة .

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾

وَيُزَكِّيكُمْ: يطهركم من الشرك والمعاصي .

الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ: القرآن والسنن والفقه في الدين.

لم يكد يتم تحويل القبلة من بيت المقدس نحو الكعبة،حتى أخذ اليهود والنصارى في مناقشاتٍ فارغةٍ عما إذا كانت جهة الشرق هي جهة الله أم جهة الغرب ؟! فقد كانوا ينظرون إلى هذه القضية على أنها مجرد قضية تحديد جهةٍ معينةٍ فحسب،غير أن هذا كان ناشئاً عن جهلهم بحقيقة الأمر ، فاتخاذ الكعبة قبلةً لم يكن قضية تحديد جهةٍ عباديةٍ معينةٍ بالمعنى البسيط، بل كان ذلك علامةً على أنه قد آن الآوان لنزول ذلك الخير الأعظم لعباد الله،الذي قد تم تقريره منذ أمدٍ بعيدٍ جداً، والذي يتمثل - طبقاً لدعاء سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام - في ظهور نبي آخر الزمان ﷺ ،وأنه قد بُعث الآن، ذلك المبعوث الذي سيفتح للناس كافةً، أبواب هداية الله الأبدية وسيبلُغ بنعمة تلك الهداية الإلهية إلى أقصى درجات الكمال والشمول ، وأن دين الله الذي ظل عُرضةً للضياع والتلاشي نتيجةً لغفلة الإنسان وطغيانه،سيتناوله هذا النبي

بجعله محفوظاً في صورته الكاملة إلى يوم القيامة،وأن دين الله الذي يُعدّ مجرد أسطورةٍ تقليديةٍ،سيجعله جزءاً لا يتجزأ من التاريخ البشري حيث هو واقعة حقيقية ثابتة، وأن الدين الذي لم يكن قد تحول بعدُ إلى أسوةٍ عمليةٍ مستقلةٍ،فإنه سيقوم بتقديمه أمام الناس كأسوةٍ عمليةٍ حيةٍ ملموسةٍ، فالواقع أن القضية قضية إكمال الهداية الإلهية،وليس قضية تحديد الجهة الأكثر قداسة من بين الجهات العديدة .

وإنه قد صار من المحتوم، في أثناء بناء الكعبة بالذات، أن الكعبة ستكون مركزاً للدين الذي يُبعث به آخر الأنبياء ، وقد ظل الأنبياء السابقون جميعاً يخبرون الناس بذلك بصورةٍ مستمرةٍ، ومن ثم فإن جَعْل الله الكعبة قبلةً لجميع الأمم والشعوب كان يعني توثيقاً لاعتبار نبي آخر الزمان ﷺ ، فالذين يتمتعون بالجدية لم يعودوا الآن بحاجةٍ إلى أية حجةٍ أخرى بعد هذا الإعلان الإلهي ، وأما الذين لا يخشون الآخرة، فليس هنالك شيء يردعهم عن الخوض في الأمور الباطلة ، فالخائفون من الله جل جلاله هم وحدهم المهتدون إلى سبيل الهداية، وأن ذكر الله الدائم هو وحده الذي يجعل شخصاً مؤهلاً ليذكره الله تعالى، وإن مخافة الله المستمرة هي وحدها الكفيلة بأن يؤمّن الله صاحبها من كل خوفٍ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

وَلَنَبْلُوَنَّكُم: لنختبركم ونحن أعلم بأموركم .

صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ: ثناء أو مغفرة منه تعالى.

الدين هو أن يكون المرء قد وجد خالقه يقضي ليله ونهاره في ذكره وشكره الدائبين، وإن حياةً كهذه هي مصدر كل أنواع السعادة واللذة، غير أن هذه السعادة واللذة لا يفوز بهما المرء في صورتهما الحقيقية إلا في عالم الآخرة، إذ لم يجعل الله تعالى هذه الدنيا - التي نعيش فيها - مكان مكافأةٍ وإنعامٍ،بل جعلها دار اختبارٍ وابتلاء، فقد هيأ فيها ظروفاً وملابساتٍ من شأنها أن تقف بمثابة حجر عثرةٍ بين المرء وسيره على خط العبودية لله سبحانه وتعالى،ذلك لكي يُعرف الجادّ في إظهار إيمانه ممن هو ليس بجادّ في ذلك ؛فدوافع النفس، ومطالب الأهل والعيال، ومصالح الدنيا، ووساوس الشيطان، وضغوطات الأوضاع الاجتماعية القاهرة، كل ذلك مما لا يزال محيطاً بالمرء متمثلاً بشتى صور الفتنة والإغراء الخلابة، ومن ثم يتحتم على المرء أن يفطن لهذه الفتن والمغريات حتى لا يقع فيها، وبالتالي يستطيع الوفاء بمطالب الذكر والشكر بشكلٍ مستمرٍ .

وإن الوسيلة الوحيدة لمواجهة هذه العقبات أو المشكلات الاختبارية بنجاحٍ واقتدارٍ هي: الصلاة والصبر، أي الالتجاء الدائم إلى الله تعالى والتشبث به، والثبات الإرادي على الحق، بالرغم من كل ألوان الأذى والمحن التي تعترض سبيله ، والواقع أن الذين لا يزالون صامدين في وجه الظروف غير المواتية، والذين يظلون وثيقي الصلة بالله ولو بدا لهم النفع العاجل في غير الله، هم وحدهم الذين سيُكتب لهم - طبقاً للقانون الإلهي - النجاح والسعادة الأبدية .

والسبب الثاني وراء الصعوبات والمصائب المعترضة في سبيل الحق، يكمن في دور المؤمن الذي يقوم به كداعٍ أو مبلغٍ ، إن عمل الدعوة والتبليغ هو- بعبارةٍ أخرى - عمل النصيحة والنقد، وإن كلاً مِنْ النصيحة والنقد ظل دائماً من أبغض الأشياء إلى الإنسان ، ثم إن أشد الناس حساسيةً بالنسبة للإصغاء إلى النصيحة هم أولئك الانتهازيون الذين يتاجرون باسم الدين ، حيث يُخيل إلى أمثال هؤلاء الناس جميعاً أن بروز شخصية الداعي ورسالته في الساحة، إنما يعني تقليصاً لدائرة نفوذهم وإلغاءً لاعتبارهم ومكانتهم ، فإن وجود الداعي يصبح بمثابة ميزانٍ محايدٍ يتم عليه وزن كل شخصٍ وزناً دقيقاً؛ الأمر الذي يجعل طريق الداعي طريقاً شائكاً محفوفاً بمخاطر

وعقباتٍ لا تُعد ولا تُحصى.

فالداعي - عقب قيامه بدعوته - لا يلبث أن يفقد مركزه الاجتماعي، وأن تتحطم اقتصادياته، وأن تنسدّ كل أبواب الرقي والتقدم في وجهه، وقد تتعرض حياته للخطر .. إلخ، غير أنه ليس على الجادة إلا الذي يُؤذى متهماً بالانحراف عن الجادة، ولا يظفر بالعطاء إلا الذي يفقد في سبيل الله، وليس بحيّ إلا الذي يضحي بحياته في سبيل الله، وليست جنة الآخرة إلا لمن حُرِم من جنة الدنيا لوجه الله تعالى .

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

شَعَائِرِ الله: معالم دينه في الحج والعمرة .

اعْتَمَرَ: زار البيت المعظم على الوجه المشروع .

فَلاَ جُنَاحَ: فلا إثم عليه .

يَطَّوَّفَ بِهِمَا: يدور بهما ويسعى بينهما .

يَلْعَنُهُمُ اللهُ: يطردهم من رحمته .

يُنظَرُونَ: يُؤخرون عن العذاب لحظة .

كان سيدنا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - يقطن بالعراق، وقد خرج - امتثالاً

لأمر الله تعالى - بزوجته هاجر وولَده الرضيع إسماعيل من وطنه، وتركهما في تلك المنطقة التي تعرف اليوم بمكة ، حيث لم يكن بها إذ ذاك ساكن ولا ماء ، وعندما اشتد العطش بهاجر وولدها، خرجت بحثاً عن الماء، وظلت تسعى قلقةً حائرةً بين الجبلين - الصفا والمروة - ولكن دون جدوى، ولما انصرفت عائدةً - بعد سبعة أشواطٍ باحثةٍ - فإذا بعين ماءٍ قد انفجرت بالقرب من مقرها، وهي العين التي اشتهرت - فيما بعد - بزمزم وهذا حادث رمزي؛ يظهر لنا من خلاله كيف تكون معاملة الله تعالى مع عباده المخلصين ، فلو أن عبداً من عباد الله ظل يسير قُدماً في سبيل الله، حتى ينتهي به المسير إلى حيث لم تبق تحت قدميه سوى تربةٍ رمليةٍ مقفرةٍ؛ لفجرّ الله له - بعظيم قدرته - ينابيع الرزق في الصحارى والقفار، وإنما الغاية من السعي بين الصفا والمروة في أثناء الحج والعمرة، هي استحضار ذلك الحدث التاريخي العظيم وتخليد ذكراه .

ولقد كانت حياة رسول الله ﷺ وتعاليمه بحيث تتضمن آياتٍ إلهيةً واضحةً لدرجة أنه لم يكن بالمتعذر على أحدٍ أن يتأكد من أنه نبي مرسل من عند الله تعالى ، غير أن علماء اليهود لم يصدقوه ، ومردّ ذلك إلى الخوف الذي كان يسيطر عليهم؛ لأنهم لو اعترفوا بصدق النبي العربي ﷺ لأصبحت سيادتهم الدينية أثراً بعد عين؛ مما سيؤدي - بالتالي - إلى حرمانهم من كل المنافع المادية التابعة لذلك، فلجأوا إلى سياسة كتمان الحق، حاسبين إياها خير وسيلةٍ لنجاحهم، مع أن سر نجاحهم الحقيقي يكمن في إعلان الحق ، ولقد تجاهل هؤلاء ذلك حينما اتخذوا موقف الإحجام عن الحق وكتمانه.

إن أول وأهم ما يطلبه الله تعالى من عباده هو أن يتقدموا نحو الحق على كل حالٍ من الأحوال، حتى ولو كان ذلك على حساب حرمانهم من كل ما يملكون ، فإن العبد إذا صار محروماً عاطلاً لأجل الحق، ظفر بما هو أكبر من كل شيء على الإطلاق، ألا وهو نصرة الله رب العالمين .

غير أن أبواب الرحمة الإلهية لا تزال مفتوحةً للإنسان في كل وقتٍ؛ لأن الإنسان إذا ارتكب خطيئةً أو ذنباً، ثم استفاق ضميره، وعاد إليه رشده، فاتجه نحو الوجهة

الصحيحة، وقام بإعلان ذلك الأمر الحق الذي يريده الله تعالى أن يتم إعلانه، فإن الله سيعفو عنه ويغفر له، وأما الذين ظلوا قائمين على موقف الجحود وعدم الاعتراف بالحق، وماتوا وهم كذلك، فأولئك سيبعدون عن رحمة الله تعالى إلى الأبد .

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

وَبَثَّ فِيهَا: فرَّق ونشر فيها بالتوالد.

وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ: تقليبها في مهابها وأحوالها .

إن إله الإنسان واحد لا غير، وهو وحده جدير بأن يكون مركزاً لتوجهات الإنسان واهتماماته ، والواقع أن وجودنا هذا، وكل ما نتمتع به على وجه الأرض، ليس إلا بفضل أن إلهنا هو مصدر الخير والرحمة والإحسان ، ولذا فينبغي للمرء أن يتخذه - تعالى - معبوداً لنفسه بكل معنى الكلمة؛ بحيث يمارس حياته طبقاً لمرضاته، ويستعذب الموت في سبيله، وأن ترتبط كل آماله وتمنياته بالذات الإلهية وحدها، ارتباطاً وثيقاً دائماً لدرجة أن يصبح الله جل شأنه في نظر الإنسان كل شيء، تماماً كما تكون الأم كل شيء في نظر طفلها الصغير .

وإن هذا الكون الفسيح الممتد أمامنا تعريف رائع بالذات الإلهية وصفاتها الكاملة، فوجود مصنعٍ هائلٍ لا يُدرك مداه؛ كالذي نشاهده في صورة السماوات والأرض؛ يقتضي أن يكون له صانع قام بإيجاده؛ ويقوم بتدبيره وتسييره ، وسير الأشياء والظواهر كلها سيراً متناهياً في الضبط والتناسق والانسجام؛ برغم ما يبدو هنالك من تناقصٍ واختلافٍ شاسعٍ بين ظاهرةٍ وأخرى؛ يقوم دليلاً على أن خالق الوجود ومالكه واحد،

وكون كل أشياء هذا الكون مفيدةً ومحققةً لصالح الإنسان بوجه من الوجوه ، مما يؤكد أن الكون لم يوجد بمحض مصادفة واتفاق ، بل قد تم إيجاده وتصميمه عن قصد، وإرادةٍ حكيمةٍ هادفةٍ ، وسريان الحياة والنضارة والحيوية في داخل الأشياء التي تبدو ميتةً ومضمحلةً، نتيجةً للعملية الطبيعية، مما يشهد على أن الموت في هذا الكون حادث مؤقت وليس بفناءٍ دائمٍ، فما من موتٍ هنا إلا وتتبعه الحياة الثانية بالضرورة، ووجود عددٍ لا يُحصى من الحيوانات المختلفة الأنواع من ماءٍ واحدٍ وغذاءٍ واحدٍ؛ يدل على عظيم قدرة الله تعالى، وإحاطة الهواء بالإنسان من كل جانبٍ وفي كل حينٍ؛ مما يُشعر بأن الإنسان تحت سيطرة خالقه المطلقة والدائمة، فلا يمكنه الفرار من ذلك ألبتةَ ، وكل الموجودات في هذا الكون مسخرةً وفق مقتضيات الحياة الإنسانية، مما يُثبت أن خالق الإنسان ذو رحمةٍ واسعةٍ بلا حدود، فيهتم بتدبير حاجاته قبل أن يخرج الإنسان إلى حيز الوجود.

وما هذه الآيات المنبثقة في أرجاء الكون إلا تجليات الخالق العظيم في خلقه ، فمن خلال ذلك يظهر ويتجلى الوجود الإلهي، ووحدانيته، واتصافه بجميع صفات الكمال، بصورةٍ واضحةٍ جليةٍ ، لدرجة أنه لا يمكن معها أن يظل أي ذي بصيرةٍ محروماً من مشاهدته، ولا يعجز عاقل عن إدراكه، على أنه لا يُدرك الدلائل إلا الذي يتأمل فيها، والذي يكون جاداً تمام الجدية بالنسبة لمعرفة الحق، والذي لا تتأثر آراؤه وأحكامه بالمصالح والأغراض الذاتية، والذي لا تقف نظرته عند ظواهر الأشياء، بل تتجاوزها حرصاً منه على استكشاف الحقائق الجوهرية العميقة التي تكمن وراء سطوح الأشياء وأشكالها الظاهرية .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا

تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

أَنْدَاداً: أمثالا من الأوثان يعبدونها .

وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ : تفرقت الصلات التي كانت بينهم في الدنيا

الأَسْبَابُ: من نسب وصداقة وعهود.

كَرَّةً: عودة إلى الدنيا **حَسَرَاتٍ**: ندامات شديدة.

إن الإنسان – بحكم فطرته وأحواله المحيطة به – هو الكائن الذي يتطلع دائماً إلى سندٍ خارجي ، يتمثل في وجود من شأنه أن يمدّه بما يستبدل بضعفه قوةً وبنقصه كمالاً ، والذي يكون عنده موضع الثقة والاعتماد، ويمنح روحه الطمأنينة الصادقة واليقين ، وأن نُشرك أحداً في حياتنا على هذا النحو، يعني اتخاذنا إياه إلهنا ، والمرء إذ يتخذ من وجودٍ ما إلهه فإن ذلك يستتبع تلقائياً أن تصبح كل عواطف الحب والإجلال الجياشة في نفسه خاصةً بإلهه ذاك.

إن دافع الحب كامن بصورةٍ جبليةٍ في صميم الطبيعة البشرية، ومن ثم كان المرء مُجبراً على أن يُحب أحداً حباً شديداً، وإنه من أحبه أحد من الناس هذا ((الحب الشديد)) هو الذي يكون إله ذلك الشخص ومعبوده ، كما لا يمكن مشاهدة الله بصورةٍ مباشرةٍ في هذه الدنيا؛ فعادة ما يرفع عُبّاد المظاهر بعض الموجودات المرئية إلى درجة الألوهية؛ تلك التي لا يستحقها أحد غير الله سبحانه وتعالى ، وحينما تتمثل هذه الآلهة الباطلة في أولئك الرؤساء أو الزعماء الذين يكتسبون صفة المرجعيّة للناس، بناءً على ما يمتلكون من الخصائص والسمات الظاهرية ، حينذاك يقوم الإنسان بملء الفراغ الداخلي في فطرته بأحد الرؤساء أو القادة.

ما هو السبب وراء ظاهرة الانحراف هذه ؟ إن السبب هو انخداع الناس عادةً بشيء من البريق الظاهري الذي يحدو بهم اعتبار صاحبه ((عظيماً)) ، فقد يتأثر الناس غاية التأثر بشخصٍ يرونه يتمتع بمزايا وصفاتٍ غير عاديةٍ ، وقد يصير البعض موضع

إعجاب الناس وإجلالهم نظراً لمنصبه المرموق في المجتمع، وربما ينخدع الناس بشخص عندما يجدون حوله عدداً ضخماً من الأتباع المعجبين به ، وقد تحيط ببعض الناس هالة من القصص والأساطير الغامضة، مما يجعل الآخرين يظنون أنه يمتلك قدراتٍ وقوىً خارقةً غير عاديةٍ ، غير أن الحقيقة أنه ليس ثمة أحد غير الله في هذا الكون يملك أي نوعٍ من العزة أو العظمة، وأن دعاوى الألوهية الباطلة إنما تستمر ما دام الله لا يظهر عياناً، وما إن يظهر الله تعالى للعيان حتى ينقلب الوضع تماماً لدرجة أنه سيفر الكبار وقتئذٍ من صغارهم التابعين، والصغار سيفرون من كبارهم المتبوعين ، وأن العلاقة التي كانت موضع اعتزاز الإنسان في الدنيا، والتي كان يَعُدُّ ولاءه لها وحرصَه عليها أكبر وأنجح وسيلةٍ لنجاته فإنها ستغدو في الآخرة هباءً كأن لم تكن لها أية حقيقةٍ ، وهنا سيقلب الإنسان أوراق حياته الماضية وكله أسىً وندم وحسرة، وحينئذٍ لا يكون بمقدوره أن يفعل شيئاً لتدارك ما فات .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ: بالمعاصي والذنوب .

وَالْفَحْشَاءِ: ما عَظُم قبحه من الذنوب .

أَلْفَيْنَا: وجدنا .

يَنْعِق: يصوت ويصيح.

بُكْمٌ: خُرسٌ عن النطق بالحق .

ما هو الشرك؟إنه توحيد عواطف العبودية نحو وجهةٍ أخرى غير الله تعالى، إن الله تعالى هو الضرورة الكبرى اللازمة لحياة الإنسان وسعادته، وعاطفة الالتجاء إلى الله كامنة في الطبيعة البشرية بصفةٍ عميقةٍ لدرجة أنه لا يمكن معها لأي شخصٍ أن يعيش حياةً سعيدةً هانئةً بدون الله تعالى، وإنه ليس ضلال الإنسان هو التخلي عن الله مطلقاً،بل اتخاذه إلهاً مصطنعاً خيالياً مكان الإله الحقيقي، ولذا فقد حرمت الشريعة الإسلامية كل شيء من شأنه أن يُحوّل مجرى عواطف الإنسان الفطرية نحو اتجاه غير الله سبحانه وتعالى.

ولقد جرت عادة الوثنيين على أن يطلقوا بعض البهائم باسم أصنامهم، ويعدون أكل لحوم تلك البهائم السائبة أو الانتفاع بها من أي وجهٍ حراماً ، وما زالت هذه العادة الوثنية جاريةً إلى يوم الناس هذا في شكل ((الطائر الوطني)) و((الحيوان الوطني)) ونحوهما في ظل الحضارة الحديثة المعاصرة ، والشأن أنه ليس تحريم أي شيء على هذا النحو مجرد قضية قانونية بسيطة ، إذ إن شيئاً ما حين يتم تحريمه فإن العامل الرئيسي وراءه يرتبط بأن ذلك الشيء((مقدس)) بناءً على أية عقيدةٍ مزعومةٍ، وهذا تدخل مباشر في الحقوق الإلهية ، وإشراك غير الله فيها، فإن ذلك يعني توزيع مشاعر الاحترام والتقديس الفطرية التي هي لله وحده، والتي يجب أن تكون بصفةٍ كليةٍ ودائمةٍ لله تعالى وحده لا غير.

وإنما هو الشيطان الذي يزين للناس مثل هذه التقاليد والأعراف الباطلة،حتى يتمكن من توجيه عواطف الإجلال والتقديس الكامنة في طبيعة الإنسان نحو جهاتٍ شتى، وبالتالي يُضعف صلته بالله جل جلاله .

وحين يُعتقد أن أي شيء غير الله ((مقدس)) فإن الإنسان المنحرف لا يزال يضيف إليه أوهاماً وتخيلاتٍ مستحدثةً بين الحين والحين ، فقد يوصف ((حيوان)) بتلك الأوصاف الجليلة التي هي من خصائص الذات الإلهية وحدها، ويُعد ذلك الحيوان

وسيلةً للاقتراب من الله تعالى ، كما يُلتمس منه الخير والبركة، ويُعقد عليه الأمل والرجاء لتذليل العقبات وتحقيق مهمات الأمور ، ثم إذا وصلت هذه العادة إلى الأجيال التالية اعتبرتها سنةً مقدسةً مأثورةً عن الآباء، مما يجعل أي نوعٍ من التأمل والتفكير فيها أمراً مستحيلاً ، حتى يصل الأمر بأولئك القوم في النهاية إلى حيث لا تبقى لديهم أية قدرةٍ على فهم الدليل والبرهان، وكأنهم لا يملكون أعيناً يُبصرون بها، ولا آذاناً يسمعون بها، ولا عقولاً يُدركون بها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾

وَالدَّمَ: المسفوح وهو السائل .

وَلحمَ الخِنزِيرِ: يعني الخنزير بجميع أجزائه .

وَمَا أُهِلَّ بِهِ : ما ذكر عند ذبحه اسم غيره تعالى من الأصنام لِغَيْرِ الله وغيرها .

اضْطُرَّ: ألجأته الضرورة إلى التناول مما حرم .

غَيْرَ بَاغٍ: غير طالب للمحرم للذة أو استئثار على مضطر آخر .

وَلاَ عَادٍ: ولا متجاوز ما يسد الرمق .

ثَمَنا قَلِيلاً: عوضا يسيرا .

وَلاَ يُزَكِّيهِمْ: لا يطهرهم من دنس ذنوبهم .

شِقَاقٍ بَعِيدٍ: خلاف ونزاع بعيد عن الحق .

المشاعر التي ينبغي أن تنبعث في داخل المرء - وهو يتناول شيئاً من المآكل والمشروبات - هي مشاعر الشكر والطاعة الإلهية، والتي تتلخص في الإحساس القائل : «أننا نأكل من رزق الله طبقاً لحكم الله تعالى» إن هذا الإحساس يوقظ في نفس المرء عاطفة العبودية الإلهية غير أن العقائد المزعومة تُغير من هذه النفسية السامية ؛لأنها تركز اهتمام الإنسان على الخصائص المفترضة للأشياء، ومن ثم فالشيء الذي ينبغي أن يكون مبعث عواطف الامتنان والشكر لله تعالى يصبح موضع الاحترام والتقديس، وهنا يرفع الإنسان مخلوقاً إلى درجة الخالق ، وإنه ليس أساس حرمة شيء هو القدسية المفترضة في ذلك الشيء، أو ما قد نُسب إليه من عقائد خرافيةٍ باطلةٍ.. لا ، بل إن ذلك مرتبط بأسبابٍ أخرى مختلفةٍ تماماً، وهي أن تكون تلك الأشياء نجسةً، وأن تكون مما نصت الشريعة على نجاسته وقذارته، مثل : الميتة، والدم، ولحم الخنزير، أو ما ذُبح للأصنام وذكر عليه اسم غير الله.. إلخ، وقد أُبيح للمرء أن يأكل من المحرمات عند الاضطرار، أى: إذا ألجأته الضرورة القاسية إلى استخدام شيء من ذلك كالجوع أو المرض أو تحت ضغط الظروف الخالصة، ولكن بشرط ألا يتناول المرء الشيء الحرام بدافع الرغبة، ولا يأخذ منه أكثر مما هو يحتاج إليه لسدّ رمقه.

ومثل هذه العقائد الخرافية الباطلة إذا صارت الديانة المفضلة لدى السواد الأعظم، فإن أخوف ما يكون عند العلماء إذ ذاك هو الجهر بالحكم الإلهي في شأن تلك العقائد الرائجة ، ذلك لكيلا يبتعد عنهم الجماهير المعجبون بهم والمعترفون لهم بالسيادة ؛ لأن سياسة التكيّف والانسجام مع اتجاهات العوامّ الضالين والمنحرفين مما يُكسبهم سعة النفوذ والعزة والمنافع المادية الكثيرة في الحياة الدنيا، ولكن أمثال هؤلاء الناس هم من أكابر المجرمين عند الله تعالى ، فإن كتمان الحق من أجل الحفاظ على المصالح الدنيوية الهينة ليس من تلك الخطايا التي سيعفو عنها الله تعالى في الآخرة؛إذ هي جرائم شنيعة لدرجة تجعل المرء محروماً من العناية الإلهية ، ومن بين هؤلاء أنفسهم من هم أبعد ضلالاً وأشد عتواً بالمقارنة إلى غيرهم، وهم أولئك الذين إذا عُرض عليهم الحق، بدلاً

من أن يعترفوا به، أخذوا يُثيرون حوله مناقشاتٍ فارغةً لا طائل تحتها ، وينتهي الأمر بأمثال هؤلاء الناس إلى أن يستيقظ في داخلهم العناد والمكابرة، وبالتالي يصيرون بعيدين عن الحق ولا يعودون إليه أبداً .

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

البِرَّ: هو التوسع في الطاعات وأعمال الخير .

وَابْنَ السَّبِيلِ: المسافر الذي انقطع عن أهله .

وَفِي الرِّقَابِ: في تحريرها من الرق أو الأسر .

وَالصَّابِرِينَ: أخص الصابرين لمزيد فضلهم.

البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ: البؤس والفقر والسقم والألم .

وَحِينَ البَأْسِ: وقت قتال العدو .

لقد اتخذ اليهود من جهة المغرب قبلة عبادتهم، والنصارى من جهة المشرق، وظن كل من الفريقين أن جهته المختارة هي الجهة المقدسة، وأنهم باختيارهم جهة الله المقدسة ذاك، سينالون حتماً أعلى الدرجات عند الله تعالى ، غير أن ليست العبودية الإلهية بأن يستند المرء إلى أية ركيزةٍ مقدسةٍ ، وإنما العبودية الإلهية هي الاعتصام بحبل الله والتمسك به، والعمل الديني لا يتمثل في مظهرٍ شكلي ، ولكنه - من حيث حقيقته وجوهره - يعني أن يظفر المرء بالله الذي هو نور السماوات والأرض، والذي هو

أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد ، وإن الشيء الذي يحظى بالقبول عند الله ليس بمظاهر أو رسومٍ شكليةٍ، وإنما العمل الذي يؤديه المرء بكامل وجوده خالصاً لوجه الله تعالى ، والعبد المقبول عند الله الذي يكون قد وجد الله بحيث يستقر الله في أعماق وجوده بأكمله ويصير جزءاً عميقاً لا يتجزأ من وعيه وشعوره، ولا تغيب فكرته في أي وقتٍ عن ذاكرته ومخيلته ، والذي يصبح الله المالك المتصرف في مكاسبه وثرواته، والمهيمن على مسلكه وتصرفاته، فالإنسان المؤمن هو الذي يتمسك بالله ربه بأقصى قوته حتى لا ينفلت حبله تعالى من يده، مهما اشتدت وطأة الظروف والأوضاع ، وتفاقم ظلام الحوادث ، والحقيقة هي أن حق الله جل شأنه إنما يتم تأديته عن طريق طاعته الكاملة والولاء الصادق له، وليس بمجرد التوجه نحو جهة كذا وكذا، فالإيمان بالله هو أن يتخذ المرء من الله تعالى كل شيء لنفسه .

والإيمان بالآخرة هو أن تصير الآخرة في نظر الإنسان القضية الحياتية الكبرى والأصلية بدلاً من قضايا الدنيا .

والإيمان بالملائكة هو الاعتقاد بوجود أولئك المأمورين الإلهيين الذين يقومون بتدبير شئون الدنيا وفق مشيئة الله العليا.

والإيمان بالكتاب هو أن يُقر المرء بأن الله قد بعث بهدايته إلى البشرية جمعاء، ولكي يسعد الإنسان في الدنيا والآخرة لا يسعه إلا أن يقود مسيرة حياته في ضوء هذه الهداية الإلهية.

والإيمان بالنبيين هو الاعتراف والتصديق بعباد الله الذين اختارهم الله تعالى لإبلاغ رسالته إلى الناس كافةً .

هذا، وينبغي أن تترسخ هذه المقومات الإيمانية في نفس المرء وتتغلغل فيه بصورةٍ عميقةٍ، حتى يُعطي الإنسان ماله للمحتاجين، ويأخذ بأيدي البائسين والأشقياء من بني جنسه؛ لينقذهم مما هم فيه من تعاسةٍ وسوء حالٍ، بدافع الحب الخالص لله ، ابتغاء

مرضاته تعالى .

إن الصلاة خضوع مطلق أمام الحق سبحانه وتعالى ، وإيتاء الزكاة اعتراف المرء بحصة الله المستقلة في ثروته المالية ، وإن عبداً كهذا كلما عاهد عهداً فليس من شأنه أن يهم بنقضه أو إخلافه ، إذ هو يعتقد أن كل عهدٍ إنما هو عهد الله تعالى، وإن ثقته بالله واعتماده عليه يكون قوياً لدرجة أنه لا يضعف ولا يستكين في مواجهة أية أزمةٍ - ماليةً كانت أو بدنيةً - حتى ولو دارت دائرة الحرب، فهو يظل ثابتاً مستقيماً على سبيل الطاعة والعبودية الإلهية على كل حالٍ وفي كل حينٍ ، والمؤمن الصادق هو الذي تتوافر فيه هذه الصفات العليا، والمؤمن الصادق إنسان يتميز بحذره البالغ وخوفه الدائم من الله جل شأنه، وليس المتجرد من تقوى الله وخشيته استناداً إلى أية ركيزةٍ أو دعامةٍ باطلةٍ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٨١﴾ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨٢﴾ ﴾

كُتِبَ عَلَيْكُمُ: فرض عليكم .

عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ: تُرك له من ولي المقتول .

تَرَكَ خَيْراً: خلف مالاً كثيراً .

الوَصِيَّةُ: نسخ وجوبها بآية المواريث .

جَنَفاً: ميلاً عن الحق خطأ وجهلاً.

إِثْماً: ارتكاب للظلم عمدا .

شرع الإسلام مبدأ القصاص بشأن قضية القتل،ومعنى ذلك أن يُعامل القاتل بمثل ما عامل به المقتول ، ولقد تضمن هذا التشريع فائدتين كبيرتين، أولاهما: أن يتم استئصال شأفة جريمة القتل؛ فإن المرء سيرتدع عن إزهاق روح الغير حرصاً على حياته، وبالتالي تصبح حياة الجميع مصونةً من البغي والاعتداء، والفائدة الثانية : إخماد عواطف الثأر والانتقام الملتهبة في نفوس ورثة القتيل، حتى لا يندفعوا إلى اتخاذ أية خطوةٍ سلبيةٍ جديدةٍ تصيب المجتمع بالخراب والدمار غير أن القصاص في الإسلام ليس بأمرٍ محتومٍ أو إلزاميٍ، بل أمر قابل للتراضي والمصالحة بين الطرفين، فأولياء القتيل إن شاءوا قُتل القاتل، وإن شاءوا أخذوا الدية، وإن شاءوا عفوا عن القاتل عفواً مطلقاً، وإنما الغاية الرئيسية من هذا التخيير أو التخفيف - على حد التعبير القرآني - هي أن يظل المجتمع الإسلامي بحيث يسوده دائماً الشعور بالإخاء والتآلف والمودة بين أفراده بعضهم نحو بعضٍ ، ولا ينشأ فيه أبداً جو الشحناء والتباغض بين أفراده، كما أن مبدأ ((الدية)) ينطوي على فائدةٍ خاصةٍ وهي أن ورثة القتيل يحصلون عن هذا الطريق على عوضٍ ماليٍ عن فقيد أسرتهم .

ومن المشكلات التي تنشأ في إثر وفاة أحدٍ من الناس مشكلة ميراثه الذي يخلفه .. وقد عالج التشريع الإسلامي هذه المشكلة بإقرار مبدأ ((المعروف)) في توزيع ميراث الميت على أقربائه ، وكأن هذا التوزيع بالمعروف هو تقوى المال، فإذا تم إعطاء كل فردٍ من أقرباء الميت ما يستحقه من تركته، ساد المجتمع كله استقرار شامل؛ لأنه بعد أن نال كل ذي حقٍ حقه، صار في مأمنٍ من أي اضطرابٍ ناشئٍ عن تنازع أفراد إحدى الأُسَر في الاستئثار بما خلفه الميت من مالٍ أو عقارٍ ، وربما يكون أحد أفراد الأسرة غير

مستحقٍ لوراثة الميت من الناحية القانونية، غير أنه يكون مستحقا لذلك من الناحية الأخلاقية، ففي مثل هذا الوضع ينبغي للميت أن يسد هذا الفراغ بالوصية ، (ومما يلاحظ أنه قد اقتصُر هنا على الأمر بالوصية طبقاً للمعروف فيما يتصل بالوراثة، في حين تم تحديد حصة كل أحدٍ من الورثة بصورةٍ قانونيةٍ محددةٍ في سورة النساء، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾

يُطِيقُونَهُ: يستطيعونه ، والحكم منسوخ بآية ﴿ فَمَن شَهِدَ ﴾ [البقرة:١٨٥].

تَطَوَّعَ خَيْراً: زاد في الفدية.

وَلِتُكَبِّرُوا الله: لتحمدوا الله وتثنوا عليه .

الصوم هو تربية عملية لشيئين اثنين في آنٍ واحدٍ، أولهما: الشكر، والثاني: التقوى، فالطعام والماء نعمتان عظيمتان من نعم الله سبحانه وتعالى ، غير أن المرء لا يعرف قدر هاتين النعمتين حق قدرهما في الظروف العادية ، أما في حالة الصيام، إذ يُمسك المرء نفسه عن تناول الماء والطعام طوال النهار، حتى يبلغ منه الجوع والعطش كل مبلغٍ، ثم يتناولهما عقب غروب الشمس، ففي تلك اللحظة يشعر المرء بمدى عظمة هذه النعم

الإلهية المتمثلة في الطعام والشراب ، وهذه التجربة تملأ كيانه الداخلي كله بمشاعر فياضة من الامتنان والشكر لربه المنعم الوهاب .

كما أن الصوم - من جانبٍ آخر - تهيئة للإنسان لممارسة التقوى ، وما هي التقوى؟ إن التقوى هي أن يجتنب الإنسان محارم الله تعالى في سائر مجالات الحياة الدنيا، بحيث يظل دائماً بعيداً عن كل ما نهى الله عنه، ولا يفعل إلا ما أمر الله به أن يُفعل؛ وإذ يكتفي الإنسان فعلاً في أيام الصوم، بتناول الطعام في آناء الليل فقط، ويكف عن الأكل والشرب في أوقات النهار، فكأنه يتلقى بذلك تدريباً عملياً على اتخاذ الله عز وجل رقيباً ومهيمناً على نفسه ، والحقيقة أن حياة الإنسان المؤمن بأكملها نوع من الحياة الصائمة المتواصلة، إن تكليف المرء في شهر رمضان بالامتناع عن بعض الأشياء المعينة لفترةٍ محددةٍ، إنما يستهدف تربيته وترويضه على أن يمتنع ويتخلى في حياته كلها عن جميع تلك الأشياء التي هي مبغوضة عند الله ربه .

والقرآن هو إنعام الله على عبده، أما الصوم فاعتراف عملي من قبل العبد بهذا الإنعام الإلهي العظيم ، وعن طريق عبادة الصوم يجعل العبد من نفسه أهلاً للقيام بواجب الشكر لله تعالى، كما يكتسب أيضاً الاستعداد العملي لممارسة حياة التقوى والعفاف وفق المنهج الرباني الذي رسم القرآن حدوده وأبعاده وأوضح معالمه .

ومن آثار الصوم أنه يلين القلوب ويزيدها رقةً وخشوعاً وانكساراً، وهو بذلك يجعل المرء مستعداً لكي يستشعر تلك الكيفيات السامية التي يطلبها الله تعالى من عباده، والصوم رياضة شاقة تؤهل المرء لكي يمتلئ صدره شوقاً وتلهفاً لتأدية شكر الله،ويهتز كيانه النفسي من خشية الله وجلاله، وعندما يبلغ المرء هذه الحالة النفسية،فحينئذٍ فقط يمكنه أن يشكر الله على نعمه الوفيرة شكراً تمتزج به نبضات قلبه،وأن يمر بتجربة التقوى،تلك التي يقشعر لها جلده،وأن يُدرك العظمة الإلهية بصورةٍ يتضاءل أمامها وجوده إلى أقصى الحدود.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ

فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

الرَّفَثُ: الوقاع .

هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ: سكن أو ستر لكم عن الحرام .

حُدُودُ الله: منهياته ومحرماته.

وَتُدْلُوا بِهَا: تلقوا بالخصومة فيها ظلما وباطلاً.

إن الصوم ممارسة عملية للصبر، والصبر يعنى تحمل الصعاب والشدائد في سبيل الامتثال لأوامر الله تعالى، ويزيد الإنسان تقرباً إلى الله تعالى، وتفيض من لسانه كلمات القبول عند الحق سبحانه وتعالى، ولا يظفر بالله جل شأنه إلا الذي يُسلم نفسه لله عز وجل، وإنما تصل إلى الله تبارك وتعالى كلمات شخصٍ قد وصل أوتار قلبه بالحقيقة الإلهية.

وشريعة الإسلام شريعة فطرية، ولذا فهي لا تُلزم المرء بقيودٍ أو التزاماتٍ لا تتفق وفطرته الإنسانية ، ويدخل في هذا الإطار إباحة الاتصال الجنسي في ليالي الصوم وحظره في أوقات النهار، وجعل المشاهدة العامة هي القاعدة بخصوص معرفة مواعيد

السحور والإفطار بدلاً من فرض الاعتماد على التقاويم ، ولقد أوضح الله تعالى معالم دينه الرئيسية وأبرز حدوده العامة، ثم أتاح للإنسان بعد ذلك حرية التصرف والاختيار في مجال الأمور الفرعية، فينبغي للإنسان ألا يتخطى هذه الحدود الإلهية، وأن يتخذ بإزاء الجزئيات - أو الفروع التفصيلية - موقفاً يتفق مع روح التقوى والخشية من الله تعالى، وإن تعقيب أحكام الصوم في هذا المقام بالنهي عن « أكل الأموال بغير حق » يقودنا إلى اكتناه حقيقة الصيام وجوهره لأن الغاية الأصلية من الصوم هي تأهيل الإنسان للقيام بطاعة الله وتنفيذ أوامره على كل حالٍ وفي كل حينٍ ، فيُمسك نفسه عن كل شيء ينهى الله عنه، حتى ولو كان من جملة المباحات، كما يكون في الصوم، إذن فإن الشخص الذي امتنع عن تناول الكسب الحلال، نزولاً على الأمر الإلهي، كيف يمكن ألا يمسك نفسه عن الكسب الحرام إذعاناً لأمر الله ذاته ؟!

إن حياة المؤمن نوع من الحياة الصائمة المتصلة، فعمره كله مُوزَّع بين « الإفطار الدائم » ببعض الأشياء وبين « الصوم الدائم » عن بعض الأشياء الأخرى، وشهر رمضان ليس إلا فترة التربية لذلك ، والدرس الذي يتلقاه الإنسان من خلال رياضة الصوم الشاقة وحياته المنضبطة، يتلخص في أن العابد الحقيقي لله تعالى إنما هو الإنسان الذي يعبد الله عز وجل، ولا يدعو الله إلا الذي يتقرب منه جل شأنه بالتضحيات .

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾

ثَقِفْتُمُوهُمْ: وجدتموهم وأدركتموهم .

وَالْفِتْنَةُ: الشرك بالله وهم في الحرم .

عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ: في الحرم كله .

إن ظاهرة ازدياد القمر وانتقاصه هي لمعرفة الأوقات والتواريخ، وليست - كما يزعم المخرفون وعُباد الأوهام من الناس - لأن ليالي ازدياد القمر هي ذوات بركة وليالي انتقاصه نحسات ، لا ، بل إنما هو تقويم الطبيعة يظهر في السماء لكيما يقرر الناس في ضوئه أنظمةً لعباداتهم وشئونهم الحياتية الأخرى ، وهكذا كثير من الناس يزعمون بعض الرسوم الشكلية تديّناً ، كما كان العرب في الجاهلية إذا أحرموا للحج وخرجوا من بيوتهم مرةً لم يدخلوها ثانياً من أبوابها، بل تسوروا الحائط من ظهر البيت، ثم دخلوا فناءَه؛ وذلك بناءً على اعتقادهم بأنه بعد تمام إحرام المرء للحج لا ينبغي أن يحول بينه وبين السماء شيء، فإن ذلك مناقض لآداب الإحرام ، غير أن التدين ليس عَلماً على مثل هذه الآداب الشكلية، إنما التدين هو أن يخشى المرء من الله تبارك وتعالى، ويلتزم بحدوده المقررة في حياته العملية . والمؤمن مطالب بأن يكون مجاهداً لأجل الدين، بجانب كونه متبعاً وممارساً لأحكام الدين وإن الجهاد الذي ورد ذكره في هذا المقام هو الجهاد الذي وقع في زمن رسول الله ﷺ حيث فَقَد مشركو العرب حق الحياة نتيجةً لإنكارهم للدعوة النبوية بالرغم من إتمام الحجة عليهم ، هذا بالإضافة إلى مبادرتهم الفعلية باستخدام وسائل العنف والقوة ضد أهل الإسلام، مما جعل القيام بالهجوم العسكري ضدهم أمراً لا غضاضة فيه ، ولذا فقد أمر الله المؤمنين بحمل السيف ضدهم . ومعنى قوله : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ أن يتم القضاء النهائي على الشرك في جزيرة العرب، ولا يبقى هناك أي دينٍ آخر غير دين

التوحيد ، ومن خلال تنفيذ هذا الحكم جعل الله تعالى جزيرة العرب مركزاً دائماً للتوحيد .

وأُذِن لأهل الإيمان بالحرب والقتال في حالةٍ واحدةٍ فحسب؛ وهي عندما يكون الطرف المعارض قد بدأ بالهجوم فعلاً ، ثم إذا تمكن أهل الإيمان من الانتصار والغلبة على العدو بأنْ يضع العدو سلاحه فلا يُؤاخذ ولا يُعاقب على جرائمه السابقة ، وإنما يُعاقب الشخص الذي يرتكب جريمةً تقتضي العقوبة والتعذيب، والأمر بالقتل في الظروف العادية ليس كالأمر بالقتل في الظروف الخاصة بالحرب والقتال .

﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾

وَالحُرُمَاتُ: ما تجب المحافظة عليه .

التَّهْلُكَةِ: الهلاك بترك الجهاد والإنفاق فيه .

على أن القتال في الأشهر الحرم - وهي : المحرم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة- أو عند حدود الحرم المكي هو إثم كبير، غير أن معارضي الإسلام إذا ما انتهكوا هذه الحرمة للقيام بتحركاتٍ عدوانيةٍ ضدكم، فيحق لكم أيضاً أن تقاوموهم غير مراعين لتلك الحرمات على وجه القصاص ، ولكن ينبغي ألا يدفعكم بغض العدو إلى التجرد عن تقوى الله في معاملته، ولا تبدءوا بانتهاك أية حرمةٍ من عند أنفسكم ، ولا تتخذوا أية خطوةٍ تتجاوز أكثر وأبعد مما يقتضيه الحال ، ولا يظفر بنصرة الله وتأييده إلا من يظل واقفاً عند الحدود الإلهية المقررة وملتزماً بها حتى في أشد الظروف إثارةً واستفزازاً .

ما الفرق بين الظلم والقصاص ؟ الفرق بينهما أن القصاص يكون متساوياً مع

اعتداء الطرف الآخر كماً وكيفاً، أما الظلم فهو تجاوز هذه القيود والالتزامات ، وعدم التقيد بها، ولا يجوز لأحدٍ أن يصيب غيره بشيءٍ من الأذى أكثر مما أصابه ، وليس من التقوى في شيءٍ أن يقابل الرجل كلمة نصحٍ وُجهت إليه فساءته بتوجيه الشتائم إلى الناصح والاستهزاء به؛أو أن يستخدم العنف والقوة،رداً على لذعة من لذعات اللسان والقلم، وكذلك التسبُّب في الخسائر البدنية والروحية مقابل الخسائر المالية،والجروح الأكبر حجماً وخطورة مقابل الجروح الأقل خطورةً، وإزهاق نفوسٍ كثيرةٍ مقابل نفسٍ واحدةٍ؛ كل ذلك مما يدخل في إطار الظلم، وإذا كان المسلم قد أبيح له القصاص، فإن الظلم غير مباحٍ له ألبتة في حالٍ من الأحوال .

إن الشيء الذي يتطلبه الكفاح في سبيل الله أكثر من كل ما سواه هو ((المال)) ، ومما لا شك فيه أن التضحية بالمال أصعب وأشق ما يكون على الإنسان ، ومن هنا فقد أمر الله المسلمين أن يهتموا بعمل الله اهتمامهم بأعمالهم الذاتية،وأن يُكثروا من البذل والإنفاق في سبيله،حتى يستطيعوا إنجاز هذه المهمة الإلهية في أحسن صورة.

والمراد بقوله : ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ هو البخل ، أي لا ينبغي أن تمسكوا بأيديكم عن النفقة في سبيل الله تعالى ، فإن الشعور بالحرج وضيق النفس في الإنفاق مستلزم لهلاك الدنيا والآخرة معاً ، وقد يحسب الإنسان أن بذل المال مما يؤدي به إلى الهلاك ، أما الحقيقة فهو أن عدم الإنفاق في سبيل الله هو الهلاك بعينه؛ لأن الإنسان إذا امتنع عن تفويض ما عنده إلى الله عز وجل، لم يستحق أن يُخوّله الله تعالى شيئاً مما عنده، وذلك هو الخسران المبين .

الإنسان الذي لا يرى وجهاً لاستخدام ثروته عدا حاجات نفسه أو حاجات أهله وعياله، يعده القرآن إنساناً هالكاً، وبدلاً من ذلك يؤكد القرآن الكريم أن الوجه الصحيح لاستخدام الثروة هو صرف القسط الأوفر منها في مقتضيات الدين ، إن بذل المال في تحقيق الطموحات والرغبات الذاتية فحسب مما يستوجب الغضب الإلهي على

الفرد والمجتمع، وعلى العكس من ذلك فإن المال إذا تم إنفاقه في سبيل دين الله تعالى، استحق الفرد والمجتمع كلاهما نعمة الله ورحمته؛ والباذل يعود عليه بذله بما لا يُحصى من فوائد دنيوية أيضاً بالإضافة إلى فوزه بثواب الله في الآخرة.

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ ﴾

أُحْصِرْتُم: منعتم عن الإتمام بعد الإحرام .

فَمَا اسْتَيْسَرَ: فعليكم ما تيسر وتسهل .

مِنَ الهَدْيِ: مما يُهدى إلى البيت من الأنعام .

وَلاَ تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ: لا تحلوا من إحرامكم بالحلق.

يَبْلُغَ الهَدْيُ مَحِلَّهُ: مكان وجوب ذبحه (الحرم) أو حيث أحصرتم (حلا أو حرما)

فَفِدْيَةٌ: فعليه إذا حلق فدية .

نُسُكٍ: ذبيحة ، والمراد هنا شاة.

مِن الهَدْيِ: هو هدي المتمتع

فَرَضَ: ألزم نفسه بالإحرام .

فَلاَ رَفَثَ: فلا وقاع ، أو لا إفحاش في القول . وَلاَ جِدَالَ فِي الحَجِّ: لا خصام ولا مماراة ولا ملاحاة فيه.

مع أن عرب الجاهلية أيضاً كانوا يمارسون الحج، ولكن الحج عندهم كان بمثابة طقسٍ قومي أو موسمٍ تجاري،وليس بعبادة لله الواحد إلا أن العبادة - سواء كانت الحج أو العمرة أو ما عداهما من العبادات - لا تكون لها قيمة إلا إذا أُدّيت خالصةً لوجه الله سبحانه وتعالى، وإن الإنسان الذي يكون عابداً لله في حياته اليومية، حين يقوم لتأدية عبادة الله تعالى، فإن كيانه النفسي كله يتركز عليها؛ فهو يمارس إذاً عبادةً تكون في ظاهر أمرها مجموعةً مؤلفةً من عددٍ من الآداب والمناسك، إلا أنها من حيث جوهرها وحقيقتها الداخلية تمثل جعل العبد نفسه أمام الله عز وجل، ذلك العبد الذي يخشى الله تعالى حق خشيته، والذي تصبح قضية الحساب والمؤاخذة في عالم الآخرة هي القضية الكبرى في حياته الدنيا.

إن المؤمن هو الإنسان الذي لا يعيش لأجل الشهوة والذي يجتنب معصية الله في كل شئونه، ويظل بعيداً عن الخصومات والمنازعات في مجال الحياة الاجتماعية ، وبما أن رحلة الحج هي فرصة ملائمة جداً لتربية هذه الصفات الخلقية، تم فيها التأكيد على ذلك بصفةٍ خاصةٍ ، وبما أن الحج رحلة ، فيتركز كل اهتمام الناس أو جُلّه على أخذ أهبة السفر وزاد الطريق فقط بينما التقوى أفضل وأعظم ما يتخذ منه مسافر الله زاداً ، ولا يمكن أن تتحد مشاعر الرجلين الداخلية خلال السفر، فيما إذا كان أحدهما قد خرج آخذاً معه كل ما يحتاج إليه في سفره من عُدةٍ ومتاعٍ وكفى، وأما الآخر فقد خرج ورأس ماله هو تقوى الله وصدق التوجه إليه جل شأنه .

وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ يتضمن الإشارة إلى أن التقوى شيء له علاقة بالعقل، فالتقوى إذاً ليست عَلَماً على سمتٍ أو مظهرٍ خارجي، إنما هي حالة

تعتري العقل أو الوعي وتسري فيه ، إن الإنسان حينما يظفر بالله ربه على مستوى الوعي والشعور، فإن ذهنه لا يلبث أن يمتلئ بجلال الله وروعته جل وعلا .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

جُنَاحٌ: إثم وحرج .

فَضْلاً: رزقا بالتجارة والإكتساب في الحج .

أَفَضْتُمْ: دفعتم أنفسكم بكثرة وسرتم .

المَشْعَرِ الحَرَامِ: مزدلفة كلها أو جبل قُزَح .

مَّنَاسِكَكُمْ: عباداتكم.

مِنْ خَلاقٍ: نصيب من الخير أو قدر .

فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً: النعمة والعافية والتوفيق .

وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً: الرحمة والإحسان والنجاة .

إن التقوى هي الأصل والجوهر، فإذا كانت هذه الحالة المطلوبة تتوافر في نفس أحدٍ من الناس فلا يضيره معها شيئا أن يشتغل بالتجارة وكسب المعاش خلال أيام الحج، أو أن يحدث تقديم أو تأخير في تأديته لبعض مناسك الحج، والجو الذي ينبغي أن يكون سائداً في أثناء الحج، هو جو الخشية الإلهية، وذكر الله، والشكر على آلاء الله ونعمه، ومشاعر الخضوع والاستسلام لله تبارك وتعالى ، ولا ينبغي أن يصدر خلال الحج أي عملٍ يناقض هذه الكيفيات السامية ، وعلى سبيل المثال: تميّز بعض الأفراد أو الجماعات عن الآخرين في أسلوب تأدية العبادة، وذكر محامد الآباء والأجداد ، وهو نوع من إظاهر الذات وتمجيدها بصورةٍ غير مباشرةٍ ، إن هذه الأشياء وأمثالها غريبة كل الغرابة ومبتوتة الصلة عن عبادة الحج، التي تؤكد مبدأ المساواة بين بني البشر جميعاً أمام رب العالمين، والتي يتم فيها إعلان أن العظمة والكبرياء كلها إنما هي لله تبارك وتعالى وحده ، فإذا انقضت أيام الحج دون أن يتلقى المرء فيها التربية الفعلية لهذه الأمور، فهيهات أن يتسنّى له القيام بها في الفترة الباقية من عمره .

إن الأدعية، ولا سيما أدعية الحج، هي تعبير أو إظهار لحالة المرء الداخلية، فإن كان أحد الناس يعيش في هذه الدنيا، وقلبه مليء بروائع الآخرة، فإن الأدعية التي تفيض وتتدفق من باطنه في مواقف الحج، ستكون بالطبع منصبةً على الآخرة، وعلى العكس من ذلك فإن الشخص الذي تكون الدنيا وزينتها قد أخذت من قلبه كل مأخذٍ، وصارت هي أكبر همه في الحياة، فسيكون المتاع الدنيوي أول وأكثر ما يطلبه من ربه في مناسبة الحج أيضاً، وأفضل الدعاء أن يدعوا الإنسان ربه قائلاً : ((يا رب ! أعطني في الدنيا ما تراه أنت خيراً لدنياي، وأعطني في الآخرة ما تراه أنت خيراً لآخرتي، ونجني من سخطك وعذابك !)).

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ هذا هو أكبر درسٍ يتلقاه الإنسان من خلال الحج؛ والذي يتم إلقاؤه في ميدان عرفات حيث يجتمع ملايين البشر من كل أنحاء العالم في وقتٍ واحدٍ.. إن اجتماع عرفات هو تمثيل لاجتماع يوم القيامة .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾

أَلَدُّ الخِصَامِ: شديد المخاصمة في الباطل .

الحَرْثَ: الزرع .

أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ: حملته الأنفة والحمية عليه .

فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ: كافيه جزاء نار جهنم .

وَلَبِئْسَ المِهَادُ: لبس الفراش والمضجع جهنم.

يَشْرِي نَفْسَهُ: يبيعها ببذلها طاعة الله.

الناس دائماً يُعجبون بكلام رجلٍ يتخذ من المصلحة دينه؛ ذاك لأنه يتحدث إلى الناس بالمحبّب إلى نفوسهم، وليس بالحق وما هو غير الحق، وبما أنه لا يستند في قوله وفعله إلى أي مقياسٍ مستقل دائمٍ، فهو يختار في كل مناسبةٍ أسلوباً يؤثر على مخاطبه ويتفق مع هواه، وبتغير المخاطب والمناسبة، تتغير أساليب كلامه، الأمر الذي يجعله يتكلم بأحاديث شاقةٍ معسولةٍ من لسانه، ولو كان قلبه خالياً كل الخلو من أية عاطفةٍ إنسانيةٍ صادقةٍ ، وولاءٍ حقيقيٍ للحق، دون أن يشعر بوخزة ضميرٍ أو تأنيب نفسٍ .

وما هو السبب في أن رجلاً كهذا يبدو «مصلحاً» فيما إذا كان على مسرح الكلام والحديث، في حين أن تصرفاته في ميدان الحياة العملية إنما تكون باعثةً على الفساد لا على الإصلاح ؟! السبب في ذلك هو التناقض الذي يعيشه، إن النتائج العملية تتمخض دائماً عن العمل دون الألفاظ ، فعلى أنه يتفوه من لسانه بكلماتٍ تشهد بغيرته

الشديدة على الحق وفنائه في سبيله، غير أن عمله يكون دائماً تبعاً لمصلحته الذاتية وحدها، ومن ثم ينشأ تضاد أو تناقص بين قوله وفعله ، فما إن ينصرف عن مكان القول، ويتجه إلى مكان العمل، حتى تضطره دواعي مصلحته إلى اتخاذ خطواتٍ وتحركاتٍ لا تُنتج إلا الخراب والدمار، فيستغل الآخرين لأجل منافعه الذاتية، وهو يُخدّر الناس بأحاديث عاطفيةٍ مثيرةٍ للحصول على الشعبية والحظوة لدى الجماهير، و لا يجد غضاضة في أن يقيم صرح قيادته على حساب الصالح العام للأمة، ويمارس سياسة التخريب؛ إذ هي تمكنه من أن يستتبع جموعاً غفيرةً من العوام السذج بسهولة ، إن هذا الصنف من الناس باعوا حياتهم مقابل منافع الدنيا ومصالحها ، فهم لا يتلقون الحق بالقبول، ولو ظهر الحق أمامهم بصورةٍ واضحةٍ جليةٍ؛ لأنهم يرون ذلك مما يؤدي إلى تقليص ظلهم وإسقاط اعتبارهم ومكانتهم، ولذلك يسلكون في الحياة مسلكاً مزدوجاً : يتحدثون بكلامٍ لينٍ معسولٍ ولكن تختفي وراءه مشاعر الكبر والغرور السلبية التي تحول دون انقيادهم الفعلي للداعي إلى الحق الذي يعدونه حقيراً ضئيل الشأن بإزاء نفوسهم .

وثمة صنف آخر من الناس، وهو الذي يبيع حياته مقابل مرضاة الله سبحانه وتعالى، والذي يتناول كلمة الله بالقبول متخلياً عن كل عاداته وأفكاره الذاتية، والذي يرضى بأن يصير فقيراً عاطلاً عن المال ، مضحياً بماله كله في سبيل الله جل شأنه، والذي يفضل دين الله الخالص على الدين التقليدي الرائج؛ ولو تسبب ذلك في حرمانه من كل حُظوةٍ ومكانةٍ لدى عامة الناس، ويتخذ شعاره دائماً من إعلان الحق بدلاً من عبادة المصلحة والمنفعة، ولو صار عُرضةً لعتاب الناس ومقتهم نتيجةً لموقفه ذاك .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ

ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

فِي السِّلْمِ كَافَّةً: في الإسلام وشرائعه كلها.

خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ: طُرقه وآثاره وأعماله.

زَلَلْتُم: ملتم وضللتم عن الحق .

ظُلَلٍ مِّنَ الغَمَامِ: طاقات من السحاب الأبيض الرقيق .

بِغَيْرِ حِسَابٍ: بلا نهاية لما يعطه ، أو بلا تقتير.

اختيار الإسلام كدينٍ يتخذ إحدى صورتين: أولاهما: أن يتم اختياره بناءً على كامل الإخلاص وصدق النية، ودون مراعاةٍ لأية مصلحةٍ أو تحفظٍ، فيفعل ما يأمر الإسلام بفعله، ويُترك ما يأمر بتركه، ومثل هذا الموقف هو الذي يمثل دخول أي إنسانٍ في دين الإسلام بكليته ، وأما الصورة الثانية فهي:أن يختار المرء من الإسلام القدر الذي لا يتعارض مع حياته العملية، فيؤمن ببعض الإسلام لأنه يراه نافعاً أو - على الأقل - غير ضارٍ له، ويدع البعض الآخر لأنه مما يمس ويصدم عقائده وعاداته المحببة إليه، ومنافعه الدنيوية.. إلخ، وقد يدخل المرء في دائرة الإسلام بدايةً بتمام رغبته وصميم إرادته،ولكن سرعان ما تزل قدماه عن الجادة، عندما يأتي الوقت الذي يفرض عليه أن يختار أحد أمرين لا ثالث لهما: إما أن يُحطّم شاكلته الفكرية،وإما أن يناصر الإسلام،بغض النظر عن منفعته الذاتية،فإنه يستند إذ ذاك إلى إسلامٍ من شأنه أن يضمن له الأمرين معاً،حيث لا تتهدد منافعه الذاتية،ولا يُحرم أيضاً من شرف الانتساب إلى دين الإسلام!

وإذا كان هؤلاء يريدون دلائل تشهد بصدق رسالة الإسلام، فقد قُدمت دلائل قاطعة على أكمل ما يكون ، وأما إذا كانوا يريدون الخوارق والمعجزات، فإن الذين لم يقتنعوا بالحجج والبراهين الساطعة، لن تنفع المعجزات والخوارق شيئاً في إقناعهم ، والشيء الأخير الذي يبقي بعد ذلك هو أن يظهر الله مع ملائكته عياناً، غير أنه حينما يحدث ذلك فلن يجدي عن أحدٍ فتيلاً؛ لأنه وقت القضاء النهائي، وليس وقت العمل، وإنما يتمثل امتحان الإنسان في الدنيا، بأن يؤمن بالغيب على أساسٍ من الدلائل وحدها، فإنه إن آمن بعد أن شاهد الحقيقة العليا بعينيه، إذاً فلا عبرة بإيمان ذاك .

إن المخلصين الذين يختارون الإسلام، بغض النظر عن كل المصالح، والانتهازيين الذين يدخلون في الإسلام على أساس المصالح، ربما تكون ظروف أحد هذين الفريقين المادية في الحياة مختلفةً عن الآخر اختلافاً كبيراً ، ففي الوقت الذي يصبح فيه الفريق الأول عاطلاً عن كل شيءٍ ذي أهميةٍ دنيويةٍ، يتجمع فيه حول الفريق الثاني كل أنواع السعادة والرفاهية المادية، مما يجعله يزعم أنه أعظم شأناً وأرفع منزلةً من الفريق الأول، فيحتقره ويستخف به، غير أن هذه الظاهرة مؤقتة وليست دائمةٍ، فما إن يتم وضع نظامٍ جديدٍ أفضل، بعد تمام تحطيم هذه الدنيا الحالية، حتى تنقلب الموازين كلها، فسوف يصير كبار اليوم هناك أذلاء صاغرين، وأما الذين يُعتبرون اليوم صغاراً ضئيلي الشأن فسيكونون هناك على قمة المجد والشرف .

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ

ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾

بَغْياً بَيْنَهُمْ: حسداً بينهم وظلما لتكالبهم على الدنيا .

مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا: حال الذين مضوا من المؤمنين .

البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ: البؤس والفقر،والسقم والألم .

وَزُلْزِلُوا: أزعجوا إزعاجا شديدا بالبلايا.

إن الاختلاف في الدين يرجع إلى الاختلاف في تفسير الدين وشرح حقائقه، إذ يحدث أن يكونّ كل إنسانٍ مفهوماً خاصاً عن دين الله طبقاً لاتجاهه الفكري، الأمر الذي يؤدي إلى تباين آراء الناس وتعدد مذاهبهم، مع اتفاقهم على الإيمان بكتابٍ واحدٍ مصدراً للهداية والإرشاد ، وعندئذٍ يبعث الله تعالى أحد عباده المصطفَين ليقوم بإعلان الأمر الحق، على أن هذا الصوت يكون صوتاً بشرياً في ظاهره، كما أن الذي يرفع به عقيرته يكون رجلاً كالرجال العاديين، غير أن الباحثين الصادقين عن الحق، سرعان ما يعرفون الصدى الإلهي الذي يتجاوب مع صوته، فيبادرون بتلبية ندائه، ناسين كل اختلافاتهم النظرية ، ومن جانبٍ آخر توجد هناك طائفة ثانية من الناس، وهي التي يكون ارتباط أفرادها بدينهم المزعوم قد بلغ من الشدة حد التعصب، حيث لا يبقى معه لديهم أيما استعدادٍ لقبول أمرٍ يُعرض عليهم من غيرهم، وبالتالي تستيقظ فيهم نفسية العناد والمكابرة، مما يدفعهم إلى اتخاذ موقف الجحود والإنكار حتى بإزاء شيءٍ كانوا يعدون أنفسهم من حملة لوائه والقائمين بنصرته .

ما الذي يمنع المرء من القيام بنصرة الحق، فيما لو ظهر الحق أمامه مدعماً بدلائل باهرةٍ وبراهين ساطعةٍ؟! إنما يمنعه من ذلك دائماً ما قد يلوح له أن نصرة الحق ستهدم صرح آماله وأمنياته، وتبدد شمل مصالحه ومنافعه، وتُعرض حياته السعيدة للخطر، وتقضي على ما يتمتع به من اعتبارٍ ومكانةٍ لدى الناس،غير أن هذا هو الشيء الذي يطلبه الله جل شأنه من عباده الأوفياء، إن الطريق الذي يتحاشى الإنسان سلوكه نظراً لما فيه من عقباتٍ وصعوباتٍ، إنما هو ذلك الطريق بعينه الذي سيؤدي بسالكه إلى

الجنة، فإذا أراد المرء أن ينتزع وجوده من قوالب الفكر والعمل التي كانت محببةً إليه من قبل، ليصوغه من جديدٍ في قالب الهدي الإلهي، أُصيب كيانه كله بهزةٍ عنيفةٍ جداً، ويزيدها عنفاً وشدةً أن يقوم المرء داعياً إلى دين الله الحق ، ذاك لأن القيام بعمل الدعوة يعني القيام بتوجيه النصيحة والنقد إلى الآخرين، وإن استماع النقد والنصيحة أبغض الأمور إلى الإنسان في كل العصور والأزمان، مما يؤدي إلى حدوث رد فعلٍ شديدٍ من جهة المدعو، لا تقل شدته وخطورته عن زلزالٍ رهيبٍ بالنسبة لشخصية الداعي.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾

كُرْهٌ لَّكُمْ: مكروه لكم .

ربما يحسب الإنسان أن خير وجهٍ يستخدم فيه نفسه وماله إنما هو زوجته وأولاده، ومن ثم فهو يرى أن سعادته في بذل كل ما يملك من مواهب وثرواتٍ في تحقيق أمانيه وطموحاته الذاتية وحدها ، وأما الشريعة فهي - على العكس من ذلك تماماً - تأمر بأن يصرف الإنسان حياته وما عنده من مالٍ في سبيل الله سبحانه وتعالى ، ويُلاحظ أن هذَين المصَرفين يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً جوهرياً ، فالأول هو إنفاق على الذات، وأما الثاني فهو إنفاق على الغير، وأن الغاية من صرف القوى والمواهب - طبقاً لوجهة النظر الأولى - هي الحصول على مظاهر الدنيا وأشيائها الظاهرية ، إلا أن الغاية من البذل والإنفاق - طبقاً لوجهة النظر الثانية - هي الظفر بأشياءٍ غير مرئيةٍ في إلا عالم الآخرة .. ولكن الشيء الذي يكرهه الإنسان ويتحاشاه هو عند الله خير بعينه؛ ذلك لأنه مما ينفع الإنسان في حياته القادمة الأوسع مدىً ، والشيء الذي يحبه الإنسان ويتوق إليه هو عند الله شر بعينه؛ لأن كل ما فيه من منفعةٍ منحصرةٌ في نطاق هذه الدنيا

الفانية وحدها، ولا يعود ذلك على أحدٍ بأية فائدةٍ في الآخرة ، هذا المبدأ نفسه ينطبق على كل شأنٍ من شئون الحياة، حيث إن المرء تُعجبه حياة متحررة طليقة من كل قيدٍ، في حين سعادته الحقيقية تكون في أن يشد نفسه بحبل الله ويتقيد بحدوده عز وجل ، وإن المرء يتخذ صديقاً يُثني عليه ويكيل له المدح جزافاً، في حين تكون الأجمل أن يتخذ صديقاً يلفت نظره دائماً إلى عيوبه وأخطائه ، وقد يقف المرء موقف الجحود والإنكار نحو حقٍ ما، ثم يطير فرحاً ظناً منه أنه قد تمكن بذلك من الحفاظ على سُمعته ومكانته عند الناس، في حين كان خيراً له أن يعترف بالحق بقلبٍ مفتوحٍ وصدرٍ رحبٍ، برغم ما فيه من تعرض سمعته واعتباره الشخصي للخطر، وإن المرء يظل غافلاً أو متغافلاً عن دينٍ يتطلب الكفاح والتضحية، وإنما يتلقى بالقبول ديناً من شأنه أن يضمن له الجنة بناءً على أمور عاديةٍ وتافهةٍ جداً، والأجدر أن يختار لنفسه دين التضحية والكفاح ، وإن المرء ليهتم غاية الاهتمام بقضايا((الحياة))، أما العاقل الحصيف فهو الذي يهتم أكثر بقضايا ((الموت)) .

ومعنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ أن الذات الإلهية أرفع وأعلى من تلك الدوافع والبواعث السطحية التي طالما تستبد بعقل الإنسان، مما يجعل رأيه متأثراً غير سديدٍ في أغلب الأحيان، فينحاز صوب الاتجاه الخاطئ منحرفاً عن الاتجاه الصحيح، وأما الله سبحانه وتعالى فقضاؤه منزه كل النزاهة، فليس من شكٍ في كونه القضاء المبني على الحق، وأما أقضية الإنسان وقراراته فلا تزال محكومةً بألوانٍ من العقد النفسية الكامنة، إذ يكوّن آراءه تحت التأثر بدوافع خسيسة، ولذا فكثيراً ما تكون آراء الإنسان، أحكامه غير مبنيةٍ على الحق، ولا مطابقة للواقع ، إذن فليس لكم إلا أن تعتقدوا بأن الذي جاء من عند الله سبحانه وتعالى هو وحده الحق، وأن تتخلّوا - بإزاء ذلك - عن كل مزاعمكم وأفكاركم الذاتية .

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

كَبِيرٌ: مُستكبرٌ عظيم وزراً.

وَالْفِتْنَةُ: الشرك والكفر بالله تعالى.

حَبِطَتْ: فسدت وبطلت.

في شهر رجب من العام الثاني للهجرة، حدث اشتباك بين سريةٍ من المسلمين وبين جماعةٍ من مشركي قريشٍ،وقد وقع هذا الحادث في موضع «النخلة» بين مكة والطائف،وقُتل فيه رجل من قريشٍ بأيدي المسلمين، وكان ذلك أول يومٍ من رجب، وكان يظن المسلمون أنه آخر ليلةٍ من جمادى الثانية، ونظراً لأن رجب من الأشهر الحرم، فقد استغل معارضو الإسلام الحادث لتشويه سمعة المسلمين ورسول الله ﷺ استغلالاً مكثفاً، واصفين إياهم بالبعد عن الحق فلا يُراعون حرمة الشهر الحرم !! فقيل رداً عليهم : إن القتل أو القتال في الشهر الحرام إثم كبير، ذلك مما لا يتطرق إليه أي شكٍ، غير أن هذا العمل إنما صدر عن جماعة المسلمين بطريق المصادفة وعن غير قصدٍ منهم، في حين أنكم تمارسون باستمرارٍ وبقصدٍ وتصميمٍ من الجرائم والذنوب ما هو أكبر شناعةً من ذلك حيث ارتفع نداء الله تبارك وتعالى بين ظهرانيكم، ولكنكم - مع ذلك- لا تلقون له بالاً، وفوق ذلك تمنعون الآخرين أيضاً عن تلبيته واعتناقه ، ولقد بلغ العناد والمكابرة أنكم تصدون عباد الله عن بيت الله، وتكرهونهم على الخروج

من ديارهم ومغادرة أوطانهم، والذين يتقدمون نحو دين الله تزعجونهم وتذيقونهم ألواناً من العذاب والأذى، حتى يرتدوا عن دينهم ، وفتنة أحدٍ عن سبيل الله أشنع وأخطر من إزهاق روحه وإنها لجريمة كبيرةٍ عند الله جل شأنه أن يقترف المرء أنواعاً من الذنوب والسيئات الفاحشة إذا وجد غيره قد صدر عنه أي خطأٍ عاديٍ أخذ في تضخيمه وتشهيره ليشوه سمعته .

إن سلسلة المعارضة والمحن التي تصحب دعوة الحق تؤدي بأهل الإيمان إلى هجرة بيوتهم، كما يُضطرون إلى الجهاد بأنفسهم حتى يثبتوا على الدين، وهذا عمل مهم وإنه لعمل ثنائي الجانب، من شأنه أن يميز العباد الإلهيين من أعداء الله، إذ إن ذلك يكشف - من جهةٍ - عن أولئك الذين ليسوا من عبادة الله في شيءٍ، بل هم عبَّاد أنفسهم وشهواتهم، والذين يؤذون عباد الله لأجل منافعهم الذاتية متجردين عن خشية الله، ومن جهةٍ أخرى فإن الحسنات المتمثلة في ((الإيمان)) و((الهجرة)) و((الجهاد)) تبرز إلى حيز الوجود الفعلي عبر هذه الواقعة بالذات؛ لأنها تُسفر عن أولئك الذين ظلت ثقتهم بالله حيةً مع قسوة الظروف واشتداد الأزمات،وعن أولئك الذين فقدوا هذه الثقة بالله تعالى ولم يستطيعوا الاحتفاظ بها تحت الظروف القاسية .

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

وَالْمَيْسِرِ: القمار .

العَفْوَ: ما فَضَلَ عن قدر الحاجة .

لأَعْنَتَكُمْ: لكلفكم ما يشق عليكم .

في معرض الإجابة عن بعض الأسئلة تم الإرشاد إلى عدة مبادئ أساسيةٍ وهي :

أولاً : إذا كان شيء ضرره أعظم من نفعه نسبياً، فهو جدير بالترك .

ثانياً : إن القدر الزائد عن الحاجة من المال ينبغي إنفاقه في سبيل الله سبحانه وتعالى .

ثالثاً : يجب أن تدور المعاملات المشتركة بين الناس في الحياة العامة وفق أساليب مؤدية إلى الإصلاح، بعيداً عن تلك الأساليب التي يمكن أن تتسبب في حدوثِ أي نوعٍ من الشر والفساد في المجتمع .

إن شارب الخمر يجد في شربها النشوة والمتعة النفسية، ولاعب القمار والميسر قد يحصل على ثروةٍ طائلةٍ من غير كدٍ ولا تعبٍ ، وبهذا يُوجد فيهما جانب من النفع والفائدة بيد أنهما - من ناحيةٍ أخرى - يحتويان على أضرارٍ دينيةٍ وخلقيةٍ، وأن هذه الأضرار تفوق نفعهما، ومن أجل ذلك فُرض النهي عنهما .

وينبغي أن تتم معالجة أمور الحياة الأخرى في ضوء المعيار نفسه لأخذ شيءٍ ما أو رفضه، فمثلا إن كل النشاطات السياسية وغير السياسية، وجميع المناسبات والحفلات الاجتماعية مرفوضة إذا كان الاستعراض الاقتصادي والديني يتكشف عن أضرار أكثر من المنافع .

والإنسان المسلم هو الذي يجعل من الآخرة هدفه في الحياة، والذي يغدو ويروح وقلبه يحترق شوقاً ولهفةً للحصول على رضوان ربه، وبالنسبة لإنسانٍ كهذا فإن متاع الدنيا وأسبابها تكون بمثابة ضرورة الحياة، وليس بمثابة غاية الحياة ، مع أنه يسعى جهده ليكتسب المال، ويهتم بشئون الدنيا وأعمالها، ولكن ذلك كله يكون في إطار الحاجة والضرورة، وليس غاية وهدفاً ، ومن ثم فإن الشيء الذي يتبقى عنده فوق حاجاته الحقيقية، لا يلبث أن يعطيه في سبيل ربه، رجاء أن يرضى الله عنه، ويُدخله في

رحمته ، إذن فإن المقدار الضروري المحتاج إليه يستبقيه لنفسه، وأما الزائد عن حاجته فيبذله في وجوه الدين .

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾

أَذًى: قدر يؤذي .

حَرْثٌ لَّكُمْ: مزرع الذرية.

أَنَّى شِئْتُمْ: كيف شئتم ما دام في القُبُل .

إن الغاية الأصلية من اشتراك الرجل والمرأة في الحياة، عن طريق عقد الزوجية ليست بتعاطي الشهوة وإشباع الغريزة الجنسية، بل إنها علاقة هادفة شأنها شأن العلاقة بين الزارع ومزرعته، ومن ثم ينبغي لراغب الزواج أن يكون جاداً في ذلك تماماً كما يكون الزارع جاداً في زرعه، ويجب أن تُراعى الأمور التالية :

أولاً : أن يكون الإيمان العنصر الأول والأساسي الذي يتم عليه اختيار الزوج ، إن علاقة الزوجين علاقة بالغة الخطورة؛ لأنها تنطوي على كثيرٍ من الجوانب النفسية والأسرية والاجتماعية المتداخلة بعضها مع بعض، إذن فإن علاقةً كهذه لو قامت بين

شخصين مع عدم وجود التوافق العقدي بينهما،فإنها ستكون آخر الأمور مؤديةً إلى الضياع المحتوم لأحد الطرفين؛فإن زوجاً مؤمناً إذا اتفق مع زوجته غير المؤمنة على ((تسويةٍ عقديةٍ)) ، توصلاً إلى التفاهم، فمعنى ذلك أنه قد ضيع دينه وخسر عاقبته ، وأما إذا لم يرهن بهذه التسوية، فالشقاق والنزاع الناتج عن ذلك سيجعل بيته عرضةً للتصدع أو الانهيار .

ثانياً : أن يكون الاتصال بين الجنسين جارياً وفق أسلوبه الفطري السليم، من خلال التكيف والمطابقة مع تكوين الله تبارك وتعالى ؛ إذ إن الفطرة تندرج في إطار الحكم الإلهي، فكما لابد من الالتزام بأحكام القرآن المتلوة، كذلك لابد من أن يخضع تصرفنا الجنسي، وغيره من التصرفات العملية الأخرى، لذلك النظام الفطري الذي قرره الله لنا بصفةٍ تكوينيةٍ .

ثالثاً : أن تكون مخافة الله وتقواه الصفة الغالبة على الإنسان في كل مرحلةٍ من مراحل حياته، فلا يتخذ أية خطوةٍ عمليةٍ إلا ويسبقها طول الأناة والتفكير في أن مرجعه الأخير إلى الله رب العالمين؛ الخبير بكل شيءٍ مهما كان ظاهراً أو خفياً .

ومعنى قوله : ﴿ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ﴾ أن تقدموا العمل الصالح لآخرتكم ، أي ليس لكم أن تحسبوا أي عملٍ تمارسونه في هذه الحياة، أنه عمل دنيوي محض، ولا أثر له يمتد إلى ما وراء هذه الدنيا المحدودة، بل إن لكل عمل من أعمالكم جانباً أخروياً باقياً ، وإنكم ستواجهون حتماً بجانبكم الأخروي هذا بعد الموت ، فينبغي أن تكونوا حريصين كل الحرص على أن يُعتبر عملكم في مقياس الآخرة عملاً صالحاً وليس عملاً غير صالحٍ .

﴿ وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم

بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ
فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾
وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ
أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟
إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
﴿٢٢٨﴾

عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ: مانعا عن الخير لحلفكم به على تركه .

بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ: هو أن يحلف على الشيء معتقدا صدقه والأمر بخلافه ، أو ما يجري على اللسان مما لا يقصد به اليمين .

يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ: يحلفون على ترك مواقعة زوجاتهم .

تَرَبُّصُ: انتظار .

فَاءُوا: رجعوا في المدة عما حلفوا عليه .

ثَلاثَةَ قُرُوءٍ: حيض ، وقيل أطهار .

وَبُعُولَتُهُنَّ: أزواجهن .

دَرَجَةٌ: منزلة وفضيلة بالرعاية والإنفاق.

ربما يحلف بعض الناس تحت عامل الغضب أو اللجاجة والعناد قائلاً بأنني لن أسدي إلى الرجل الفلاني نصحا أو معروفا أبداً ، ولقد كانت عادة الحلف هذه منتشرةً بين العرب القدامى إذ كانوا كثيراً ما يحلفون على ترك بعض أعمال البر أو الإصلاح بين الناس، ثم إذا دُعوا بعدئذٍ إلى أي عملٍ من هذا النوع تعللّوا بالحلف ، فإذا كان مجرد القول بأني لن أفعل كذا وكذا من أعمال الخير قولاً سيئاً يُلام عليه قائله، فإن توكيده إياه

عن طريق الحلف بالله سبحانه وتعالى مما يزيده سوءاً وشناعةً ؛ ذاك لأن الله تبارك وتعالى كله رحمة وإحسان وخير وبركة، إذن فكيف يصح للمرء أن يستشهد بالذات الإلهية جل شأنها في امتناعه بنفسه عن ممارسة أعمال الخير والرحمة والإحسان ، إن الفساد هو الشر بعينه، أيّاً كان حجمه ونوعه؛ غير أن الفساد إذا كان يُمارس باسم الله أو بعنوان الدين الإلهي أصبح شره عندئذٍ مستطيراً، وتفاقم أمره .

وقد يجري القسم على ألسنة بعض الناس مجرى اللّغو؛ فتتخلل كلمات اليمين بالله أحاديثهم، من غير قصد ولا رويةٍ، وهذا مما يدخل في إطار اللغو والفضول ، وليحذر كل إنسان أن يقع فيه، ومن وقع فيه فليحاول أن يُقلع عنه ، وقد جُعل مثل هذا اليمين (اللغو) .

غير ذي أثرٍ أو مفعولٍ من الناحية الشرعية، فيما يتصل بالعلاقة بين الزوجين، نظراً لخطورة هذه العلاقة، وأما الكلام الذي يتكلمه المرء على أساسٍ من الوعي والتفكير، ويصحبه الإرادة أو النية القلبية؛ فذلك يختلف شأنه كل الاختلاف، فإذا حلف رجل على اعتزال زوجته وعدم الاجتماع بها، بناءً على عزمٍ وتصميمٍ، فالأمر جد لا هزل وفيه أحكام شرعية.

إن لكل شريكٍ في النظام الأسري - سواء كان رجلاً أو امرأة - حقوقاً وعليه واجباتٍ ، وينبغي أن يقوم كل فردٍ بأداء واجبه كما يأخذ حقه، فلو اعتدى أحد الأفراد على حقوق غيره، وعامله معاملةً جائرةً، استغلالاً لضعفه، فلن ينجو بنفسه من مؤاخذة الله عز وجل .

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ

وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾

الطَّلاقُ مَرَّتَانِ: التطليق الرجعي مرة بعد مرة .

تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ: طلاق مع أداء الحقوق وعدم المضارة .

تِلْكَ حُدُودُ: أحكامه المفروضة.

فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ: شارفن انقضاء عدتهن .

وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً: مضارة لهن .

آيَاتِ الله هُزُواً: سخرية بالتهاون في المحافظة عليها .

الكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ: القرآن والسنة.

الطلاق حادث غير عادي، يحصل في ظروف استثنائية غير عاديةٍ، ولقد أوصى الإسلام بالإحسان في المعاملة والالتزام بتقوى الله عز وجل في هذه القضية العاطفية للغاية.

ويُطالب الإسلام بأن تتم عملية إنهاء علاقة الزوجية تدريجياً في مراحل ثلاثٍ، بدلاً من إنهائها مرةً واحدةً، ولتقرير مثل هذا المنهج الجدّيّ المتوازن في شأن قضيةٍ متناهيةٍ في الإثارة كالطلاق، دلالته الواضحة على ذلك الموقف السلوكي الذي ينبغي أن يتخذه

المؤمن عند نشوء الاختلاف والخصومة ؛ إذْ المطلوب من المؤمن أن يكون موقفه تجاه خصمه موقفاً غير عاطفي، مبنياً على طول التأني والرويّة، وليس بالموقف العاطفي الذي يظهر فجأةً تحت عوامل الغضب والاستفزاز .

وهكذا جميع الآداب والشروط الأخرى المتصلة بالطلاق، تتضمن كلها دروساً ومعاني عميقةً للحياة الإنسانية الفاضلة ، ما تتلخص في أن تُتاح فترة من الزمن ملحوظة لا يزال المرء يفكر فيها في إمكانية إعادة الوفاق والوحدة من جديدٍ بعد تصميمه على المفارق، وألا يُعد انتهاء العلاقات والروابط الشرعية مرادفاً لانتهاء حقوقه الإنسانية، فلابد من التزام الحدود التي رسمها الله تبارك وتعالى بالنسبة للتصرفات المتبادلة بين الناس التزاماً تاماً ، وألا يُلغى حكم من الأحكام الشرعية ببعض الحِيل، ولا يسترد الزوج بعد الفراق شيئاً مما كان قد أعطاه لزوجته قبل الفراق، كما ينبغي أن تُقضى أيام الفصل والمفارقة بالمعروف كما قُضيت أيام التلاقي والارتباط .

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾

فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ: فلا تمنعوهن .

أَزْكَى لَكُمْ: أنمى وأنفع لكم .

وُسْعَهَا : طاقتها وقدر إمكانها .

وَعَلَى الوَارِثِ: وارث الولد عند عدم الأب .

أَرَادَا فِصَالاً: فطاما للولد قبل الحولين .

طلّق رجل زوجته، ولم يراجعها في زمن العدة، ولما انقضت العدة خطبها مع غيره، فرضيت المرأة بأن تنكح زوجها الأول ثانياً، ولكن أخاها لم يرض بذلك، ومنعها من النكاح، فنزل عندئذٍ هذا الحكم بأنه إذا كان الاثنان قد اتفقا على إعادة العلاقة الزوجية بينهما من جديدٍ، فلا تضعوا أنتم - أيها الأولياء - أية عرقلةٍ دون ذلك .

وهناك عدد كبير من القضايا ما يزال باقياً على أثر الطلاق في أغلب الأحيان، ومن ذلك إذا رغب الزوج الأول أن يتزوج مطلقته ثانياً، وتريد المطلقة أن تنكح رجلاً آخر غيره، فلا يجوز لأحدٍ أن يُعرقل الأمور أو يضع العقبات دون تحقيقها ، وقد تثور أيضاً مشكلة الرضاعة إذا كانت المطلقة ذات طفلٍ لزوجها السابق، وهنا طالبت الشريعة كلاً من الوالدين بألا يُضر أحدهما الآخر، وأمرت بأن تُعالج القضية بكامل الهدوء، وعلى أساسٍ من التشاور والتراضي من الطرفَين؛ دون أن تُحول إلى نقطة إثارةٍ للعواطف الكامنة أو الحزازات القلبية الدفينة .

ومن هنا يمكن لنا أن نتبين المنهج الإيماني لتصفية القضايا عند حصول الخلاف والمفارقة، وهذا الأسلوب يتلخص في ألا يتخذ أيّ من الفريقَين ما قد بقي من القضايا بجانب خصمه وسيلةً للإحراج، بل يجب أن يُوجد حل إيجابي يحقق مصلحة الفريقين، وفي الوقت نفسه يكون جديراً بالقبول لدى كل واحدٍ منهما عن رضاً وطواعيةٍ ، إن الإيمان زكاة للروح وطهارة لها، فمن كانت روحه قد تزكت وتطهرت بالإيمان، تُري هل يمكنه أن يلجأ إلى أساليب دنسةٍ لمعالجة قضاياه ؟

إن النصيحة لا تقع عند أحد الناس موقع الرضا والقبول بمجرد كونها مبنيةً على الحق، بل بأن يكون السامع راسخ الإيمان بالله عز وجل، والذي يظن أنه لو استطاع

اليوم أن يجد بعض الألفاظ لكي يرفض بها نصيحة الناصح، فإن القضية سترفع آخر الأمر إلى محكمة الله العادلة، حيث لا يُجدي أي نوعٍ من الجدل أو النقاش اللفظي عن صاحبه شيئاً.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

عَرَّضْتُم بِهِ: لوحتم وأشرتم به.

أَكْنَنتُمْ: أسررتم وأخفيتم.

لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِراً: لا تذكروا لهن صريح النكاح .

يَبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ: ينتهي المفروض من العدة .

فَرِيضَةً: مهرا .

وَمَتِّعُوهُنَّ: اعطوهن ما يتمتعن به .

المُوسِعِ: ذي السعة والغنى .

قَدَرُهُ: قدر إمكانه وطاقته .

المُقْتِرِ: الفقير الضيق الحال .

ما زال يتكرر التأكيد على ضرورة الالتزام بالتقوى والإحسان، خلال الآيات المتعلقة بأحكام الزواج والطلاق، الأمر الذي يدل على أن أيا حكمٍ شرعيٍ لا يمكن أن يتم تنفيذه بصورته الحقيقية المطلوبة، وطبقاً لروحه الأصلية، ما دام أفراد المجتمع يُعامل بعضهم بعضاً معاملةً قانونيةً محضةً، بل يجب أن تسود فيما بينهما روح التصرف الجميل ، مع العلم بأن سوء التصرف مع الآخر ، إنما تعود عاقبته الوخيمة على أصحابه أنفسهم لا محالةً ؛ لأن الأمور والقضايا كلها سوف ترجع آخر الأمر إلى الله عز وجل، حيث لا تُغني التأويلات اللفظية عن أحدٍ شيئاً ولا يكون هناك بوسع أحدٍ أن يطمس أو يُخفي أية حقيقةٍ من الحقائق المتصلة بالقضية .

يتعين على الزوج، من الناحية القانونية، أن يدفع لزوجته نصف مهرها؛ في حالة ما إذا طلقها قبل المسيس، وكان قد سبق أن حدّد مهراً معيناً لها عند عقد النكاح ، غير أن مقتضى النصح والإحسان يفرض على الزوجين كليهما، أن يُعامل أحدهما الآخر، معاملةً كريمةً سمحةً، بدلاً من حصر المعاملة في إطارها الشرعي المحدود ، فلتُوطّن المرأة نفسها على أن تتنازل عن نصف المهر الآخر، آخذةً في الاعتبار أنه لم يتم أيما اتصالٍ فعليٍ بين الاثنين! ومن جهةٍ أخرى، ليتسع صدر الرجل بدوره لأن يتقدم لدفع المهر بكامله، مع كونه غير مكلفٍ شرعياً إلا بدفع النصف فقط ، وينبغي أن تكون روح السماحة والتفضل والإحسان هي السارية في كل الأمور والمعاملات في الحياة ، والمجتمع الإسلامي هو ذلك المجتمع الذي يعطي أفراده قبل أن يأخذوا .

﴿ حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ

﴿٢٣٩ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٤٠ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ٢٤١ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٢٤٢﴾

وَالصَّلاةِ الوُسْطَى: صلاة العصر لمزيد فضلها .

قَانِتِينَ: مطيعين لله خاشعين .

فَرِجَالاً: فصلوا مشاة على أرجلكم .

وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ: مُتعة. أو نفقة العدة.

والصلاة بمثابة خلاصة الدين بأكمله؛ لأنها تمثل الصورة المصغّرة للحياة الإيمانية، التي إذا امتدّت واتسع نطاقها الفعلي تحولت إلى حياةٍ إسلامية كاملةٍ متكاملةٍ ، وأهم عناصر الصلاة ثلاثة وهي :

أولاً : الصلاة مفروضة في خمسة أوقاتٍ (في أثناء الليل والنهار) .

ثانياً : الصلاة شيء جدير بالعناية والمحافظة .

ثالثاً : جوهر الصلاة الحقيقي في الذّل والاستكانة .

يتضح من قوله : ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ أن هناك صلاةً متوسطةً وهى محاطة من كلا الجانبين بصلواتٍ عديدةٍ أخرى، وفى هذه الآية لابد أن يكون تعداد ((الصلوات)) الجانبية - أى ماعدا الوسطى - أربعةً، ذاك لأن كلمة ((الصلوات)) فى اللغة العربية لا يجوز إطلاقها إلا على ثلاثٍ أو أكثر.. وأن أول عددٍ يمكن أن تتوسط فيه صلاة ((واحدة)) بين العديد من ((الصلوات)) هو عدد الأربعة، والمراد من ((الصلاة الوسطى)) - على حسب ما جاء فى الروايات الصحيحة - هى: ((صلاة العصر)). وللدلالة على العنصر الثانى من الصلاة استُعمل لفظ ((المحافظة))، وهذا يعنى أن الصلاة شىء يتطلب الحفظ والرعاية، كما يحافظ الإنسان على المال ، وأن المحافظة على الصلوات تعنى : الاهتمام بأدائها فى أوقاتها المحددة، ووفقاً لحدودها وآدابها، والابتعاد الإراديَّ عن كل شىء يُحدث خللا فى الصلاة شكلاً أو كيفيةً..إلخ.

والعنصر الثالث للصلاة هو الذل والاستكانة، وهو روح الصلاة الأصيل، وإذا كانت الصلاة تعنى مثول العبد بين يدى الله عز وجل،فلابد أن تطرأ على المرء خلال أدائه للصلاة، الكيفيات التى تطرأ على ((أصغر ما فى الوجود، فى حالة قيامه أمام أكبر ما فى الوجود)) .

إن وصف أحكام المعاشرة بكونها ﴿ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ ﴾ يكشف عن جانبٍ مهمٍ من الشريعة، لأنه إذا كانت ثمة مجموعة من الحقوق المحددة شرعاً،لكى يتخذها الناس أساساً ومرجعاً لما يدور بينهم من أمورٍ ومعاملاتٍ مشتركةٍ - ولكن ذلك ليس كل ما يجب على المرء من حقوقٍ لغيره- فإن هناك مزيداً من الحقوق غير الحقوق الشرعيه المعينة، هي الحقوق التى ينبثق شعور المرء بحجمها وضرورة أدائها لأصحابها من امتلاء قلبه بتقوى الله وخشيته تعالى، وكلما تمكنت معاني التقوى من أعماق نفس المرء اشتد إحساسه بحتميّة أدائها .

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ

مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

قَرْضاً حَسَناً: احتسابا به عن طيبة نفس .

يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ: يُضَيِّق على بعض ويوسع على آخرين .

قدم المسلمون إلى المدينة مرغمين بعدما ضاقت عليهم أرض مكة بضغوط سكانها الوثنيين، ولأن المدينة تتوافر فيها بيئة حرة تسمح لهم أن يعيشوا وفق عقيدتهم وتعاليم دينهم في أمنٍ وطمأنينةٍ ، غير أن معارضي الإسلام لم يدعوهم يطمئنون هناك لمدةٍ يسيرةٍ من الزمن، إذ أثاروا هجماتٍ عسكريةٍ متواليةٍ ليقتلعوا جذورهم من المدينة ، وعندئذٍ أمر الله المسلمين أن يقاوموهم .

ولأن أسباب القوة الحربية المتوافرة لديهم - إذ ذاك- كانت ضئيلةً بالقياس إلى قوات المعارضين، فقد تسرب إلى قلوب طائفةٍ منهم الوهنُ، وفقدوا ثقتهم في الانتصار، فذكرهم الله بحادثٍ من تاريخ بني إسرائيل، يتضمن درساً بليغاً مُفاده، أن الحَذَر من الهزيمة في معركة الحياة إنما هو الهزيمة بعينها .

لقد قام الفلسطينيون - أحد الشعوب القديمة المجاورة لبني إسرائيل - بشن الهجوم عليهم، فانهزم بنو إسرائيل أمامهم شر هزيمةٍ، لدرجة أنه من خلال هجمتين اثنتين فقط قتل الفلسطينيون ما يبلغ أربعةً وثلاثين ألف رجلٍ منهم، وسيطر الخوف والرعب على بني إسرائيل ففروا من ديارهم هاربين، وعلى حد تعبير التوراة: « قد زال المجد من إسرائيل » (صموئيل الأول، الإصحاح الرابع: ٢٢).

وفي إثر تلك الكارثة أخذ كل بيتٍ من بيوت إسرائيل ينوح ويبكي هماً وكمداً، حتى

انقضت عشرون سنةً، ثم أخذوا يتساءلون : ((لماذا انكسرنا وهُزمنا أمام الفلسطينيين))، فردّ عليهم نبيّهم ((صموئيل)) قائلاً : ((إن السبب في ذلك يرجع إلى ما أصاب ثقتكم بالله من ضعفٍ وتخلخلٍ)).

إن الموت الشعبي الذي حل ببني إسرائيل كان نتيجة ابتعادهم عن طريق الله، وما إن تمت عودتهم إلى السير في طريق الثقة بالله من جديدٍ، حتى انتعشوا من رقدتهم الطويلة الأمد.

ومعنى ((القرض الحسن)) هو القرض الجميل، والمراد به الإنفاق في سبيل الله تعالى، وهذا الإنفاق لا يكون وراءه غرضٍ غير ابتغاء وجه الله تعالى وحده، ثم إنه تعالى إذا ردّه إلى صاحبه، ضاعفه له أضعافاً كثيرةً، لذا أطلق عليه ((القرض الحسن)) ، وليس من حرمان المؤمن أو تعاسته أن تعترض طريقه ضروب شتى من المشكلات والصعوبات، بل هي فاتحة لأبوابٍ جديدةٍ من فضل الله ورحمته تعالى، فالمؤمن إذا واجه أزمةً أو صعوبةً في حياته، أخذ بعد ذلك في التضحية بنفسه وماله في سبيل الله، ما يجعله يستحق تلك العنايات الربانية العظيمة، التي لا يستحقها أحد في ظروف الحياة العادية .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن

رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

المَلأ: وجوه القوم وكبرائهم .

عَسَيْتُمْ: قاربتم.

أَنَّى يَكُونُ: كيف أو من أين يكون؟

وَزَادَهُ بَسْطَةً: سعة وامتدادا وفضيلة .

يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ: صندوق التوارة .

فِيهِ سَكِينَةٌ: سكون وطمأنينة لقلوبكم.

لم تكد تنتهي ثلاثة قرونٍ بعد موسى عليه السلام حتى صار بنو إسرائيل مقهورين بأيدي الأمم الوثنية التي كانت تجاورهم إذ ذاك ، وبعد مرور حوالَي ربع قرنٍ من الزمان على هذا الحال، دبَّ في نفوسهم دبيب اليقظة والنهوض، ففكروا في استعادة مجدهم الغابر، وإنقاذ أنفسهم من الهلاك، وبناء على طلبهم، عيَّن نبيهم ((صموئيل)) (١٠٢٠-١١٠٠ق م.) قائداً سُميّ بـ((طالوت)) في القرآن الكريم وبـ ((شاؤل)) في التوراة .

وقد كان طالوت هذا يملك من المؤهلات والاستعدادات الذاتية ما يجعله أجدر الناس بذلك المنصب، غير أن بني إسرائيل لم تتسع صدورهم للاعتراف بسيادته وأخذوا يوجهون إليه الاعتراضات والمآخذ، مثل أنه ينتمي إلى عائلةٍ غير ذات شأنٍ، وليس بذي مالٍ وثروةٍ طائلةٍ... إلخ .

إن أقضية الله سبحانه وتعالى تكون مبنيةً على أساسٍ من السعة والعلم، ولذا فإن العبد المحبب إلى الله هو الذي ينظر إلى الأمور بروحٍ سُمحةٍ، وعقلٍ منفتحٍ، وإذا اتخذ موقفاً من إحدى القضايا فإنما يتخذه بناءً على الحقائق المجردة وحدها، وليس بناءً على التعصبات والمصالح الشخصية ، بيد أن الله سبحانه وتعالى وثّق أيضاً جدارة

((طالوت)) بتولي الإمارة، من خلال إرجاع التابوت توثيقاً غير عادي.

ولم يزل بنو إسرائيل - منذ أن خرجوا من أرض مصر - يتوارثون بينهم تابوتاً مقدساً، محتوياً على رضاض ألواح التوراة وغيرها من المتبرَّكات، ويحسبونه رمزاً للظفر والانتصار على أعدائِهم، وكان الفلسطينيون قد أخذوا هذا التابوت منهم، وذهبوا به معهم، غير أنهم ما كانوا يضعونه في بلدةٍ ما حتى تنتشر فيها صنوف من الأمراض الوبائية، مما جعلهم يتشاءمون من وجود التابوت عندهم، فما لبثوا أن وضعوه على عربةٍ يجرها ثوران، وما برح الثوران يسيران بالعربة في الاتجاه الذي سيقا إليه، حتى أفضى بهما المساق إلى حيث القرى اليهودية الآهلة.

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾

فَصَلَ طَالُوتُ: انفصل عن بيت المقدس.

مُبْتَلِيكُم: مختبركم وهو أعلم بأمركم

اغْتَرَفَ: أخذ بيده دون الكرع.

لاَ طَاقَةَ لَنَا: لا قدرة ولا قوة لنا.

فِئَةٍ: جماعة من الناس .

بَرَزُوا: ظهروا وانكشفوا.

وَالْحِكْمَةَ: النبوة .

بعد سيدنا موسى عليه السلام بنحو ثلاثمائة عامٍ، وقبل ميلاد المسيح عليه السلام بحوالي ألف سنةٍ، حدث أن شن الفلسطينيون هجوماً على بني إسرائيل واستردوا معظم أجزاء فلسطين من أيديهم، وبعد ردحٍ من الزمن، أراد بنو إسرائيل أن يُهاجموا الفلسطينيين ويغتصبوا بلادهم ، وقد كان بينهم إذ ذلك نبيّ يُسمى ((صموئيل)) ، يقطن بمدينة ((الرّامة)) - إحدى مدن سوريا القديمة - وكان مسئولاً عن شئون بني إسرائيل الاجتماعية في عصره ، فقابله وفد من بني إسرائيل ، وقالوا له : لقد بلغت الآن سن الشيخوخة ، لذا فإننا نرى أن تملّكُ علينا رجلاً من أنفسنا ، لنتمكن من قتال أعدائنا تحت إمرته .

على أن ((صموئيل))لم يكن حسن الظن بسلوك بني إسرائيل ، ولا واثقاً بمواعيدهم غير أنه رآهم يأبون إلا أن يؤمّر عليهم أحداً ، فأجاب طلبهم ، فجعل فتىً شجاعاً من قبيلة ((بنيامين)) يُدعى ((شاؤل)) (طالوت) أميراً (ملكاً) عليهم.

وانطلق شاؤل (طالوت) بمعية جيش الإسرائيليين يزحف نحو العدو ، وكان الطريق يخترق نهر الأردن ، وبجانبه المقابل تماماً تقع مناطق العدو ، وكان طالوت خبيراً بنقائص بني إسرائيل ، ومواطن ضعفهم ، فأراد أن يمتحن معنويات جنوده ، قبل أن يخوض بهم غمار الحرب ، فأعلن أثناء عبور النهر ، ألا يشرب أحد من الماء ، إلا من اغترف غرفةً أو بعض غرفةٍ بيده فلا بأس بذلك ، لكن غالبية بني إسرائيل فشلت في هذا الاختبار ، بيد أن الله سبحانه وتعالى أمدهم بنصره في هذه المعركة ، وقد أدّى سيدنا داود - الذي لم يكن قد تجاوز سن الشباب بعد - الدور الحاسم في هذه الحرب

حيث قتل بيده جالوت ، البطل العملاق من عسكر الفلسطينيين ، فانكسر الفلسطينيون أمام الإسرائيليين ، واحتل اليهود فلسطين .

إن الإنسان حين تتوافر لديه أسباب السلطة ، فلا يلبث أن يقع في الغرور والكبرياء عاجلاً أو آجلاً ، فيبغي على الآخرين ويسومهم سوء العذاب ، ومن ثم فلو أن مقاليد السلطة والحكم أصبحت وقفاً على أحد من الناس بصفة دائمة ، لملأ أقطار الأرض كلها ظلماً وفساداً وعدواناً ، ولذا فقد جرت سنة الله عز وجل في تدبير شئون هذه الدنيا بأنه لا يزال يستبدل أصحاب السلطان بعضهم ببعض ، فهو يبعث - إذا شاء - طائفةً من المحكومين المستضعفين ، ويدفع بها صاحب السلطة ، لكي يحل محله من شاء من عباده الآخرين ، وهذا يعني أنه كلما طغى حزب من الأحزاب الحاكمة ، وبلغ من الظلم والعدوان غايته ، فإن ذلك يكون أوان النصرة الإلهية للحزب المعارض الذي يقوم ضده .

وليست الخشية من الله بشيء سلبي محض ، بل إنها معرفة تصقل عقل الإنسان وتملؤه نوراً وضياءً ، فيرى كل شيء في صورته الأصلية والحقيقية .

﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾

بِرُوحِ الْقُدُسِ: جبريل عليه السلام.

عندما يبعث أحد عباد الله للناس للإيمان به تعالى ، فإنه نداءه يتضمن آيات واضحات للناس ليتأكدوا من أنه من عند الله عزل وجل ، غير أن الناس - مع ذلك -

لا يلبثون أن ينكروه ويجحدوا به ، وفي مقدمة هؤلاء المنكرين الجاحدين عادة ما يكون أولئك الذين كانوا مؤمنين من ذي قبل بإحدى الرسالات السماوية ، فما هو السبب في إنكارهم للرسالة الجديدة؟ السبب في ذلك هو اعتقادهم بأفضلية مطلقة للرسول الذي ظلوا يؤمنون به ، ولذا فهم يقولون: أنه إذا كان رسولنا قد بلغ من كمال الفضل وعلو المقام هذا المبلغ الرفيع ، ومازلنا نحن نؤمن به فعلاً ، إذن فما الذي يُحوجنا بعد إلى الإيمان بأي رسول آخر؟!

كل رسولٍ يبعث في بيئةٍ وظروفٍ مختلفةٍ، ومن ثم يُعطى لبعض الرسل ((فضيلة))، وللبعض الآخر فضيلة أخرى ، وإن فضيلة الرسول هذه تتخذ صورة فتنةٍ بالنسبة لأتباعه في العصور التالية ؛ لأنهم يحملون الفضيلة المعطاة لرسولهم على غير محملها، إذ يحسبونها ((فضيلةً مطلقةً)) بدلاً من كونها ((فضيلة تعزيزٍ وتأييدٍ)) ، فهم يقولون: إننا مؤمنون بأفضل الرسل على الإطلاق فلسنا بحاجةٍ إلى الإيمان بأحدٍ سواه .

لقد أنكر المؤمنون بموسى عليه السلام رسالة سيدنا المسيح عليه السلام ، ذلك بأنهم ظنوا أن نبيهم أفضل درجةً حتى إن الله تعالى كلّمه على نحوٍ مباشرٍ، وأنكر المؤمنون بعيسى عليه السلام رسالة نبي آخر الزمان ﷺ ومرجع ذلك إلى ظنهم القائل بأنهم يؤمنون بشخصيةٍ قد ارتقت في سلّم المجد والفضيلة إلى حد أن خلقها الله من غير أبٍ .

وعندما تُمنى الأمم والشعوب بالانحطاط، ويتجه الناس بكليتهم نحو الدنيا، وينغمسون في لذاتها، غير أنهم - مع ذلك - يريدون ألا تنفلت الجنة من أيديهم، وتلعب هذه العقيدة دورها الفعال في تزويدهم بضربٍ من السكينة النفسية، فإنهم يجدون في اعتقادهم بأفضلية شخصياتهم المقدسة ما يبعث على الثقة والاطمئنان بأن مصيرهم في الآخرة سيكون مضموناً على كل حالٍ.

وهذا هو الاعتماد الخاطئ الذي يجعل الناس يجترئون على مخالفة الداعي إلى الله ، وإنه لو شاء الله سبحانه وتعالى لجعل للدعوة والإرشاد نظاماً آخر لا يبقى فيه لأحد

مجال للاختلاف أو المكابرة، غير أن الدنيا الحاضرة هي دار امتحانٍ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾

وَلاَ خُلَّةٌ: لا مودة ولا صداقة .

الحَيُّ: الدائم الحياة بلا زوال .

القَيُّومُ : الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظهم .

سِنَةٌ: نعاس وغفوة .

وَلاَ يَئُودُهُ: لا يثقله ولا يشق عليه .

تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ: من الضلالة والكفر .

مِنَ الغَيِّ: من الضلالة والكفر .

بِالطَّاغُوتِ: ما يطغى من صنم وشيطان ونحوهما .

بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى : بالعقيدة المحكمة الوثيقة .

لاَ انفِصَامَ لَهَا: لا انقطاع ولا زوال لها .

المراد بالإنفاق هو بذل النفس والنفيس في سبيل الدين، وهو التضحية بالمنافع والمصالح الذاتية التي تقف دون التقدم نحو الدين، إن المرء حين يختار عقيدةً ما مقابل ثمن الإنفاق، فإن ذلك يدل على كونه جاداً في اختياره لتلك العقيدة ، وإنه بعد تمام توافر الجدية فقط يمكن أن تقوم هناك علاقة حقيقية صادقة بين المرء وهدفه ، وبالتالي يتمكن المرء من الإحاطة بكل جوانب الهدف وأبعاده ، وعلى العكس من هذا تماماً يكون حال الشخص الذي لا يختار الدين مقابل أن يدفع وجوده كله كثمنٍ لهذا الاختيار ، فمثل هذا الشخص لا يكون جاداً بشأن الدين ، ومن ثم فهو لا يشعر بخطورة قضية الآخرة ، بل سوف يعدها قضيةً هينةً، وسوف يظن أن شفاعة أحد الصالحين والأولياء ، أو ممارسة بعض الطقوس والمراسم الشكلية باسم الدين كافية للنجاة في الآخرة.

قد تعرض على المرء كلمة الله بلغة البرهان ، غير أنه لا يلبث أن يرفضها مستنداً إلى مجموعة من الألفاظ الجميلة الخادعة ، تلك هي الوسوسة الشيطانية بعينها ، فلا يظفر بالهدى إلا الذي يعني بتحصين نفسه من وساوس الشيطان.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾

الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ: هو نمرود بن كنعان الجبار.

فَبُهِتَ: غُلِبَ وتحير وانقطعت حجته.

إن موالاة الشعب وتأييده هما المصدر الأساسي الذي يُستمد منه استحقاق ولاية الحكم أو ممارسة السلطة السياسية في عصرنا الحاضر ، غير أن معظم الملوك قديما كانوا يحكمون الناس عادةً عن طريق إقناعهم بأنهم مظاهر بشرية للإله الأعظم المتصرف وراء هذا الكون ، وهكذا كان شأن ((نمروذ)) ملك العراق القديم، الذي كان معاصراً لسيدنا إبراهيم عليه السلام ،حيث كانت أمته تعبد الشمس اعتقاداً منها بأنها إله الآلهة، فادعى ((نمروذ)) أنه مظهر أرضي لإلهه الشمس العظمى، ومن ثم فهو يتمتع بالحق الإلهي لممارسة الحكم المطلق بين الناس .

وعندما دعا سيدنا إبراهيم عليه السلام بدعوة التوحيد في العراق، فلم يكن لها مساس مباشر بالحكم والسياسة، إنما كان يقول للناس إن خالقكم ومالككم هو الله الواحد الأحد لا غير، ولا شريك له شيء من الألوهية؛ لذا يجب عليكم ألا تعبدوا إلا الله وحده، وألا تخافوا ولا ترجوا أحداً إلا إياه تعالى ، غير أن ((نمروذ)) رأى في دعوة إبراهيم غير السياسية هذه، ضربةً قاصمةً موجهةً إلى سلطته السياسية، فإن عقيدة التوحيد، التي بموجبها تتحول معبودته الشمس من إله الآلهة إلى عبدٍ ضعيفٍ، كغيرها من الكائنات الأرضية والسماوية، كانت تمثل معول الهدم للأساس العقدي الذي كان نمروذ قد أقام عليه عرش مملكته ، فصار عدواً لإبراهيم - عليه الصلاة والسلام .

والحوار الذي دار بين سيدنا إبراهيم عليه السلام وبين الملك نمروذ، يُلقي الضوء على منهج الأنبياء للدعوة إلى الله ، إذ قال عليه السلام رداً على سؤال نمروذ: ((إن ربي هو الذي يملك الحياة والموت)) فأجاب نمروذ، متخذاً أسلوب الجدل والمناظرة: ((أنا أيضاً قادر على الإحياء والإماتة ؛ أقتل من أشاء،وأحيي من أشاء))..، وقد كان بإمكانه- عليه السلام- أن يُفند جواب نمروذ ويكشف عن زيفه ، غير أنه لم يحب أن يتحول الحوار إلى الجدل والمناظرة، ولذا عمد بفوره إلى تقديم مثالٍ آخر لا يدع أمام نمروذ مجالاً للمغالطة أو التمويه كشأنه بالنسبة للمثال الأول .

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾

خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا: ساقطة على سقوفها التي سقطت .

أَنَّى يُحْيِي: كيف أو متى يحيى .

لَمْ يَتَسَنَّهْ: لم يتغير مع مرور السنين عليه .

نُنشِزُهَا: نرفعها من الأرض لنؤلفها .

فَصُرْهُنَّ: أملهن : أو قطعهن ممالة إليك .

إن تجربَتَيْ البعث بعد الموت اللَّتَيْن ورد ذكرهما في هذا المقام، تتعلقان بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام، التجربة الأولى مرّ بها سيدنا عُزير عليه السلام الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، وأما التجربة الثانية فهي ترتبط بسيدنا إبراهيم عليه السلام الذي عاش خلال الفترة من (٢١٦٠ وحتى ١٩٨٥ ق.م) ، وإذا كان الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - إنما يُبعثون من عند الله سبحانه وتعالى من أجل القيام بإعلام الناس بحقائق الغيب، لذا فقد يُكشف لهم عن أعيان تلك المغيبات التي أُسدل عليها ستار الأسباب بالنسبة لغيرهم من الناس، وإنما تجري هذه المعاملة الخصوصية مع الأنبياء - عليهم

السلام - حتى يتمكنوا من إخبار الناس بتلك الأمور الغيبية كمن شهدها عياناً، وحتى يتمكنوا - كذلك - من أن يقولوا للناس عند إخبارهم بتلك الحقائق الغيبية، إننا نخبركم بشيءٍ مشاهَد منظورٍ وليس بمجرد خبرٍ مسموعٍ.

إن حياة الأنبياء قبل النبوة تنقضي أمام أعين الناس ، وهي كلها الصدق والأمانة، لا كذب فيها ولا خداع، وإنه بعد ممارسة حياةٍ صادقةٍ أمينةٍ في المجتمع كهذه، يحين ذلك الوقت الذي يبعثهم الله تعالى فيه ، لكي يقوموا بإعلام الناس بحقائق الغيب ، تلك التي تم إخفاؤُها عن أنظار الناس بناءً على حكمة الابتلاء والاختبار ، ثم إن أولئك الأنبياء يمرون دائماً بظروفٍ أصعب وأشد ما يكون، غير أنهم لا ينحرفون عن قولهم، ولا يزالون صامدين ثابتين على دعواهم، مما لا يدع بالتالي مجالاً للشك في أنهم جادون تمام الجدية في كل ما يقولون، وليسوا بمدعين أمراً تصنعوه أو اختلقوه اختلاقاً.

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾

مَناً: عدّاً للإحسان وإظهاراً له .

أَذًى: تطاولا وتفاخرا بالإنفاق أو تبرما منه .

رِئَاءَ النَّاسِ: مُرَاءاة لهم وسمعة لا لوجهه تعالى.

صَفْوَانٍ: حجر كبير أملس .

وَابِلٌ: مطر شديد عظيم القطر .

صَلْداً: أجرد نقيا من التراب .

كل عملٍ يعمله الإنسان شأنه شأن حبةٍ يبذرها في « أرضٍ» ، فإن كان عمله من أجل أن يراه الناس، فقد بذر حبته في أرض الدنيا، حتى يتمكن من الاستمتاع بثمرة أعماله في حياة هذا العالم الفاني، وإن كان عمله من أجل أن يراه الله تعالى وحده فقد بذر حبته في أرض الآخرة، فتعطي ثمارها اليانعة في العالم الآخر، وكما أن الحبة الواحدة الملقاة في مزرعة الدنيا تُنبت المئات من الحبوب، كذلك الحال بالنسبة لإلقاء الحبة في مزرعة الآخرة أيضاً ، إن المنفق لأجل منافع الدنيا، أو لأجل الظهور والحظوة عند الناس، إنما يرغب في أن ينال أجره في هذه الدنيا بالذات، ولذا فلن يكون لمثل هذا الرجل في الآخرة من نصيب، وأما الشخص الذي يُنفق من أجل ابتغاء وجه الله تعالى وحده، فإن له شأناً آخر، إنه لا يعتد بإحسانه على أحدٍ؛إذ لو كان إنفاقه لأجل الله تعالى وحده، إذن فماذا يدفعه بعدُ إلى أن يمن بذلك على الإنسان ؟! كما أنه لا يُبدي أبداً أي نوعٍ من السخط أو الاستياء فيما إذا ردّ المنتفعون بإنفاقه رداً غير جميلٍ؛ إذ سيحظى بجميل الرد عند الله سبحانه وتعالى، إذن فما الذي يجعله يرجو عطاء الناس أو يحزن لحرمانهم إياّه ؟! وإنه إذا لم يكن بإمكانه أن يُعطي أحد السائلين، فلا يقول له كلمةً لاذعةً أو جملةً جارحةً، بل يعتذر إليه برفقٍ ؛ لأنه يعلم أن كل ما يقوله فإنما يقوله أمام الله عز وجل، فالخشية من الله إذن تُرغمه على أن يمسك لسانه أمام الإنسان.

إذا تراكم شيء من التراب على صخرةٍ ، بدتْ وكأنها كلها تراب، ولكن ما إن يصيبها مطر شديد حتى يزول الجزء العُلوي من التراب، ويتكشف بالتالي عن صخرةٍ صلبةٍ ملساء ! وهكذا يكون حال الإنسان الذي لم يأخذ من التدين إلا مظهره الخارجي فقط، والذي لم يكن الدّين قد خالط روحه، ونفذ إلى دخيلة نفسه، لأن رجلاً كهذا لا

يلبث أن ينفجر غيظاً وحنقاً ما يبعثه على تخطّي كل حدود العدل والنصفة فيما لو سأله أحد السائلين بأسلوبٍ غير مهذبٍ، أو قابله أحد الناس بما يمسّ أنانيته، ويجرح كبرياءه، فإن حادثاً كهذا يُشبه طوفاناً جارفاً يذهب بما يعلو شخصيته من ((ترابٍ))، ثم يبدو للعيان بعدئذٍ ذلك الإنسان الداخلي الذي واراه بلبوسٍ ظاهريٍ من التدين .

إن ممارسة العمل من أجل الله سبحانه وتعالى يعني إيثار الغيب على المشهود، أو تفضيل الآجل البعيد على العاجل القريب، وإن من بلغ من سمو النظر وبُعد الهمة هذا المبلغ العالي ، فإنما ذلك هو الشخص الذي تنفتح عليه أبواب المعرفة الإلهية الخفية.

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾

وَتَثْبِيتاً: تصديقا ويقينا بثواب الإنفاق .

جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ: بستان بمرتفع من الأرض .

أُكُلَهَا: ثمرها الذي يؤكل .

فَطَلٌّ: فمطر خفيف (رذاذ).

إِعْصَارٌ: ريح عاصف (زوبعة).

فِيهِ نَارٌ: سموم شديد . أو صاعقة.

إن الإنسان إذ يعمل من أجل شيءٍ، فإنه يزيد من قوته الإرادية بالنسبة لذلك

الشيء، فإذا كان عمله صادراً عن هوى نفسه، فقد ركزّ قلبه على هواه، وعلى العكس من ذلك فإذا تحرك الإنسان للعمل وفق مشيئة الله العليا، فقد ركزّ قلبه على الله عز وجل، وفي كلا الطرفين يحدث أن يُضطر المرء تارةً إلى ممارسة العمل في ظل ظروفٍ سهلةٍ، وطوراً في ظل ظروفٍ صعبةٍ، بيد أنه بقدر ما تكون الأحوال حالكة، والمواقف قاسيةً، وبقدر ما يجد المرء نفسه مضطراً إلى متابعة عمله، مكافحاً لكل ما يواجهه من خطوبٍ وأزماتٍ شدادٍ، بقدر ما سيحاول جهده لتقوية إرادته وتوطيد عزمه بالنسبة لهدفه المنشود.

ومع أن بذل المال في سبيل الله في الظروف المعتادة مستوجب للأجر والثواب، غير أن المرء إذا أعطى ماله في سبيل الله، بعدما استخدم لذلك قوةً إراديةً استثنائيةً، تحت ضغط الموانع وتيار العوامل المضادة، كان أجره عند الله حينئذٍ عظيماً إلى حدٍ بعيدٍ جداً، فأن يبادر المرء بالإنفاق في وجه، لا يعود عليه إنفاقه فيه بأي مردودٍ ماديٍ عاجلٍ، لمجرد ابتغاء مرضاة الله، وأن يُعطي للرجل - رغماً عن كرهه إياه - لوجه الله تعالى، وأن يُحسن إلى من لا ترغب نفسه في الإحسان إليه من أجل الله وحده، كل ذلك مما يُثَبِّت قدمَيْه على طريق العبودية الإلهية أكثر من كل شيءٍ آخر، ويجعله بالتالي أهلاً لرحمة الله ونصرته الخالصة.

وإنه طالما تشتد عناية المرء بأن يُنشئ لنفسه حديقةً في شبيبته، رجاء أن يأكل ثمارها اليانعة عندما تتقدم به السن، إذاً فما أسوأه حظاً إذا بلغ مشارف شيخوخته، بادت حديقته المخضرة فجأةً، واحترقت بما فيها من أطايب الثمار وأنواع الفواكه، وهو أحوج ما يكون إليها وتكون الفرص قد فاتته، لإنشاء حديقةٍ جديدةٍ وسيلاقي المصير بعينه، كل أولئك الذين يمارسون العمل الديني لأجل النفوذ والمنفعة الدنيوية، مع أنهم كانوا يمارسون أعمال البر والخير في ظاهر الأمر، غير أنها لم تكن تختلف عن أعمال رجال الدنيا العاديين إلا من الناحية الشكلية وحدها، إذ لم يكن ثمة فارق جوهري بينهما من حيث الحقيقة، فإن الوجاهة الدنيوية والرقي المادي اللَذيْن كان عامة أهل الدنيا

يكدحون لإحرازهما كدحاً في المجالات الدنيوية، فقد بدأ أولئك يكدحون من أجل الوصول إلى ذات الوجاهة الدنيوية والرقي المادي في المجالات الدينية،فقد أراد أولئك أن يحصلوا على السمعة والمكانة نفسها عن طريق بذل أموالهم في تشييد بناء الدين ، وأمثال هؤلاء الناس حين يصلون إلى عالم الآخرة، بعد انتهاء آجالهم، لن يجدوا هناك شيئاً ! ذاك لأن كلّ ما قد عملوه هنا من عملٍ، فإنما عملوه من أجل منافع هذه الدنيا وحدها، فكيف يمكنهم أن يجنوا ثمار أعمالهم تلك في العالم الآتي؟! إن آيات الله جل شأنه لا تزال تظهر وتتجلى دائماً في كل أرجاء الوجود، غير أنها تتكلم بلا نطقٍ، أو تنطق بلغةٍ صامتةٍ؛ ولذا فلن يوفق إلى استلهام ما تنطوي عليه من الدروس والعبر، إلا الذي يكون قد أعد نفسه للتأمل والتفكير.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾

وَلاَ تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ: لا تقصدوا المال الردىء.

تُغْمِضُوا فِيهِ: تتساهلو وتتسامحوا في أخذه .

إن هناك وجهتيْن اثنتين لإنفاق ما يكسبه الإنسان في هذه الحياة الدنيا من مالٍ ومتاعٍ، وأولى هاتين الوجَهتين اثنتين : أن يتم إنفاقه في سبيل الله تبارك وتعالى، والوجه الثانية: أن يتم إنفاقه في سبيل الشيطان، وإن الشيطان يحاول بدوره أن يُرسخ في قلب الإنسان أهمية مطالبه الذاتية، ويجعلها نصب عَينَيْه، وهو يوحي إليه بأن خير وجهٍ لبذل ما قد أحرزه من مالٍ إنما هو أن يُسخره كله في تغطية حاجاته الذاتية ليس غير، ثم إذا

وجد الشيطان أن المرء تتوافر لديه مقادير كبيرة من المال زائدة عن حوائجه الضرورية؛ عمِل على إلهاب عاطفةٍ أخرى جديدةٍ في داخله، ألا وهي عاطفة الرياء والتفاخر والظهور، ومن ثم يأخذ المرء في تبديد ثروته في إقامة المظاهر والطقوس الشكلية بكل سخاءٍ!!

إنه ينبغي للإنسان ألا يحسب ماله ملك يمينه، بل يحسبه ملكاً لله تعالى، وبالتالي يجب عليه أن يأخذ من كسبه كفاف حاجته فقط، وما يتبقى بعد ذلك يصرفه في تحقيق الأهداف النبيلة، والغايات العُليا، ويُعطي الضعفاء والمحرومين من عباد الله، وينفق في سبيل الوفاء بمقتضيات الدين، وإنه إذ يُعطي المرء ماله لعباد الله المستَضعفين، فكأنما يرجو ربه - بلسان حاله - ألا يحرمه سن نفحات رحمته؛ عندما يحضر أمامه تعالى صفر اليدين في اليوم الآخر، وهكذا إذ يُنفق المرء ماله في مقتضيات الدين، فإنما يُشرك نفسه في المشروع الإلهي العظيم، ويضم ماله إلى مال الله، حتى تنمو وتتضخم بضاعته الضئيلة المزجاة، بعدما تم انضمامها إلى خزانة الله الكبرى التي لا نفاد لها.

إن الذي يقوم بإنفاق ماله في الوجوه التي قررها الله سبحانه وتعالى، يُثبت أنه قد رُزق نصيباً لا بأس به من الحكمة والحصافة، إن أكبر سفاهةٍ يمكن أن يُصاب بها إنسان هي أن يحب المال حباً شديداً، بحيث يمنعه ذلك عن صرفه وإنفاقه في سبيل الله .

وبالمقابل فإن أكبر حكمةٍ يمكن أن يسعد بها إنسان هي ألا تقف المنافع الاقتصادية بمثابة حجر عثرةٍ دون مبادرته مواصلة سيره الحثيث في سبيل الله .

والشخص الذي يعيش منكمشاً داخل قوقعة مصالحه الذاتية وحدها ، لن يوفق أبداً إلى أن يظفر بذلك البصر الثاقب الذي يمكّنه من رؤية الحقائق العليا كما هي،ولا يستطيع أيضاً أن يجرب الكيفيات اللطيفة السامية.

وعلى العكس من ذلك، فإن الشخص الذي يتقدم نحو الله، صارفاً نظره عن المصالح الذاتية، فإنما يُخرج نفسه من دائرة التحديدات الضيقة، ويرفع من مستوى

وعيه وشعوره إلى مستوى موازٍ لله الغني الحميد؛ ويأخذ بعدئذٍ يرى الأشياء كما هي في صورها الحقيقة، ذلك بأنه يكون قد تجاوز بنفسه إلى ما وراء القيود والتحديدات كلها، تلك التي طالما تحول بين المرء- المحاصر بها - وبين رؤيته للأشياء في صورها الأصلية المجردة .

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾

أُحْصِرُوا: حبسهم الجهاد عن التصرف .

ضَرْباً: ذهابا وسيرا للتكسب

التَّعَفُّفِ: التنزه عن السؤال .

بِسِيمَاهُمْ : بهيئتهم الدالة على الفاقة والحاجة .

إِلْحَافاً: إلحاحاً في السؤال.

إن أفضل وجهٍ للإنفاق في سبيل الله يتمثل في تقديم المعونات المالية لأولئك الخدام

الدينين الذين أصبحوا فقراء، نتيجة انصرافهم الكلي إلى الكفاح الديني ، الشخص الذي يُسخّر وجوده كله للخدمة الدينية، لن يجد متسعاً من الوقت للقيام بأعباء كسب المعاش.

والسؤال المطروح الآن : ما الحل الإيجابي لهذه المشكلة؛ نظراً لأن مجتمعاً ما لا يمكن أن يقوم على دعائم وأسسٍ راسخةٍ متينةٍ مالم تتوافر فيه الجهود والنشاطات من كلا النوعين: الاقتصادي والديني جنباً إلى جنبٍ، إذ لا يمكن الاستغناء عن أي واحدٍ منهما على أية حالٍ ؟

إن الحل لهذه المشكلة يكمن في أن يقوم هؤلاء الأفراد الموسرين، الذين تجتمع في أيديهم كميات وافرة من أسباب العيش؛ أن يقوموا بتخصيص أنصبةٍ ملحوظةٍ منها، يدفعونها لأولئك الذين حال انهماكهم في المهام الدينية دون تمكنهم من توفير موردٍ مستقلٍ لمعيشة أنفسهم وأهليهم، إن هذا بمثابة توزيع عملٍ، يتم طواعيةً وفي صمتٍ بالغٍ بين الطرفين، فلا يكون ثمة غرض وراء ذلك سوى ابتغاء مرضاة الله تعالى .

وبما أن خادم الدين وهب نفسه، وسخر وجوده لأجل الله تعالى وحده، وليس لأي شيءٍ آخر سواه؛ لذا فإنه لا يمد يد السؤال إلى الإنسان، ولا يرجو عطاءه أو يطمع في معونته، وبالمقابل ينظر صاحب العيش الرغيد ويقول : إن كل هذه الوسائل والإمكانات الاقتصادية الهائلة، التي أملكها إنما ملكتُها على حساب خدمة الدين؛ إذ لم يكن بوسعي ألبتة أن أحصل عليها في حالة ما إذا قمت بتأدية ما كان يجب على أداؤه نحو دين الله، إذن فلا أقلّ من أن أتدارك هذا الأمر، بأن أخصص من ثروتي حصصاً مستقلةً، لصالح إخواني المنقطعين بكليتهم للخدمات الدينية، وكأنما هم يستدركون عني عند الله ما قد فرطت أنا في جنبه سبحانه وتعالى.

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ

فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾

يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ: يصرعه ويضرب به الأرض .

المَسِّ: الجنون والخبل.

يَمْحَقُ الله الرِّبَا: يُهلك المال الذي يدخل فيه .

وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ: يُنمي المال الذي أُخرجت منه.

تمثل الزكاة علاقةً أو رمزاً للنوعية المطلوبة من العلاقات الاقتصادية المتبادلة بين عباد الله، فمن خلال قيامه بتأدية الزكاة يعبر المسلم عملياً عن بالغ إحسانه واعترافه بحقوق المسلم الآخر.

والدين الذي يتوخى إيجاد مثل هذا المناخ السامي لرعاية حق الغير ومصلحته، لن يسمح أبداً بأسلوب التعامل الربوي ، القائم على حب المال إلى حد العبادة ، وفي مجتمع كهذا - الذي يقوم على المبادئ والأسس الإسلامية الرفيعة - تدور كل المعاملات المالية المشتركة بين الناس وفق مبدأ التجارة، دون مبدأ المراباة .

على أن الرجل يكسب الربح في أثناء التعامل التجاري أيضاً، هذا مما لاشك فيه، غير أن الربح الحاصل من وراء التجارة يكون عوضاً عما يبذله المرء من جهودٍ وطاقاتٍ، وما يتكبد في سبيل ذلك من صعوباتٍ ومخاطر، في حين أن الربا عبارة عن الربح الناتج عن محض الأثرة وادخار الأموال، من غير كدٍ ولا نصبٍ.

إن المرابي إذ يُعطي ماله لغيره فإنما يعطيه ليتمكن من تنمية ثروته ، ولذا فأشد ما يكون سروره، حينما يجد أن رأس ماله آخذ في النماء والتزايد المستمرَين، بنسبةٍ مئويةٍ ثابتةٍ، ولكن الإنسان الذي يُعدّه في داخل نفسه، عبر عمله هذا، هو إنسان أناني محب لذاته، ومتعبد لمتاع الدنيا ومباهجها .

وعلى العكس من ذلك، فإن الشخص الذي يتصدق على غيره، مما كسبه بكد يمينه وعرق جبينه، والذي لا يتخذ من احتياجات الآخرين ذريعةً لاستغلالهم، وامتصاص دمائهم، بل يقدم إليهم يد المعونة، ويقاسمهم ما يعانون من بؤسٍ وشقاءٍ، فإن الإنسان الذي يُعده هذا الشخص في داخله، من خلال عمله ذاك، إنسان يختلف عن سابقه اختلافاً جذرياً، إنه إنسان قلبه ممتلئ بحب الآخرين، ولا يعيش لنفسه وحدها منكمشاً في إطار ذاته الضيق المحدود، بل يتجاوز ببصره وتفكيره إلى أبعد وأوسع من ذلك بكثيرٍ حتى يشمل المصالح الإنسانية العامة .

لم يُبعث الإنسان إلى هذه الدنيا لكي يكدح في جنباتها كدحاً من أجل تكديس ركامٍ من الثروة وأسباب الرفاهية ، إن موضع التكديس أو الادخار الحقيقي للإنسان هو الدار الآخرة .

إن الذين يُثبتون الجدارة والأهلية في حياتهم الأرضية سيختارهم الله تعالى ليُسكنهم في الجنة ، وأما الآخرون ، فسوف يُلقى بأجمعهم في نار جهنم كالقُمامات .

الروح الكامنة في الصدقة هي إعطاء المحتاج لوجه الله، والروح الكامنة في الربا هي إعطاء المحتاج لاستغلال حاجته واضطراره ، فالصدقة علامة لرغبة الإنسان المتصدق في أنه يريد أن يظفر بذخائر النعيم الأبدي في العالم الآخر، وأما الربا فهو - على النقيض من ذلك- علامة لرغبة الإنسان المرابي في جمع المال وتكديسه في هذه الدنيا الفانية إن هذين إنسانان؛ مختلف أحدهما عن الآخر كل الاختلاف، وإنه لمن المستحيل أن تستوي عاقبة كليهما عند الله تعالى، كلا ، فإذا كانت الدنيا لا ينالها إلا من سعى لها

سعيها ، فلن ينال الآخرة إلا من ضحى في سبيلها بنفسه ونفيسه .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾

فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ: فأيقنوا به.

عُسْرَةٍ: ضيق الحال من عدم المال .

فَنَظِرَةٌ: فإهمال وتأخير واجب عليكم .

المبدأ الأساسي لإصلاح المجتمع أن تكون علاقات الأفراد فيه قائمةً على أساس العدل ، فلا يبغي أحد على أحدٍ، ولا يهضم أحد حق أحد .

وإذا كانت المراباة ظلماً اقتصادياً صارخاً، فقد حرمتها الشريعة الإسلامية تحريماً باتاً، ولقد أمعن الإسلام في محاربة هذا الظلم الاقتصادي الفاحش إلى حد أن قد اعتبر التعامل الربوي في ظل الحكم الإسلامي، من الجنايات أو الجرائم التي تندرج تحت طائلة قانون التعزيرات، ولكن إذا كان المرابي غير مسموحٍ له بأن يظلم الآخرين ويستغلهم، فلا يحق لأحدٍ سواه كذلك أن يجعل المرابي عرضةً لظلمه، إذ إن كون أحد الناس مجرماً لا يتطلب بالضرورة أن يتم حرمانه من حقوقه المشروعة الأخرى، إذن فعندما تُتخذ فعلاً أية خطوةٍ تعزيريةٍ ضد المرابي، فإنما تكون مقصورةً على إسقاط المبالغ الربوية الزائدة عن الأصل لا غير، مع التسليم بحقه في استرداد رأسماله الأصلي المدفوع للمدين .

غير أن الإسلام، بجانب إصداره التشريعات والقوانين العامة، يُراعي جوانب

القصور والضعف البشري أيضاً مراعاةً تامةً ، ولذا فقد أُلزم الدائن هنا بأنه إذا وجد مدينه يعاني من حالة العسر وضيق ذات اليد، فَلْيُمهلهْ إلى وقت اليسر الذي يتمكن فيه من الوفاء بدينه، كما تم الحثّ على أن تتسع صدور الدائنين لوضع المبالغ المستحقة لهم بالكلية، عن أولئك الغارمين الذين لم يعودوا يستطيعون الوفاء بما عليهم من ديونٍ.

إن العافي أو الواضع عن غريمه يستحق أجراً عظيماً عند الله تعالى، كما يؤدي ذلك إلى إيجاد جوٍ مفعمٍ بالثقة والمواساة والتكافل الاجتماعي، يعود نفعه آخر الأمر على سائر أفراد المجتمع .

غير أن مجرد تنفيذ الأحكام الشرعية لا يضمن بالضرورة صلاح المجتمع ؛ لأن الإصلاح الحقيقي لابد له من سيادة روح التقوى على المجتمع، ومن أجل ذلك عُني القرآن عنايةً بالغةً بالتركيز على معاني التقوى، والإيمان، والآخرة، خلال شرح الأحكام التشريعية.

ولا يمكن أن يتم تنفيذ النظام الإسلامي في أرض الواقع وعلى النحو المطلوب، إلا إذا توافرت روح التقوى في عددٍ كبيرٍ من أفراد الأمة، إن الالتزام بالتقوى عبارة عن استعداد الأفراد النفسي الداخلي لتقبل النظام المطلوب تطبيقه ، ولا يمكن أبداً تنفيذ أي نظامٍ بواسطة قوة القانون وحدها، مالم تتوافر هناك درجة ملحوظة من الاستعداد الداخلي لتقبله في نفوس الأفراد .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن

تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

وَلْيُمْلِلِ: وَليُمْلِ وليقر.

وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ: لا ينقص من الحق الذي عليه .

أَن يُمِلَّ: أن يملي ويقر بنفسه.

وَلاَ يَأْبَ: لا يمتنع.

وَلاَ تَسْأَمُوا: لا تملوا ولا تضجروا.

أَقْسَطُ: أعدل .

وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ: أثبت لها وأعون على أدائها.

وَأَدْنَى: أقرب.

إذا تعامل رجلان فيما بينهما بمعاملةٍ نقديةٍ (عاجلةٍ)، فإنها تنتهي لوقتها بمجرد أن يتم العطاء والأخذ بين الفريقين ، غير أن المعاملات المالية المؤجلة، شأنها غير ذلك، حيث إن الصفقات المؤجلة لو تم انعقادها، بناءً على محض الكلام الشفوي، فمن المحتمل جداً أن يؤدي ذلك إلى حدوث التنازع والخصومة فيما بعد ، بسبب عدم وجود

المستندات أو الوثائق ، إذ كلا الطرفين يحاول أن يعرض القضية وفقاً لما يريده، ولا يُوجد ثمة أساس فعلي ثابت في ضوئه يمكن البت في الأمر، وتصفية الخلاف كما ينبغي، الأمر الذي طالما يُسفر عن ارتياب أحد الطرفين وإساءته الظن بالطرف الآخر عند الدفع والتسديد .

وحل هذه المشكلة يكمن في الكتابة أو التسجيل ، ومن المستحسن أن يتم تسجيل المعاملات النقدية الفورية هي الأخرى، غير أنه ليس هنالك بد من أن يتم تسجيل المعاملات المؤجلة ، كما يجب إقامة الشهود على ذلك ، وهذا التسجيل الكتابي هو الأساس الموثوق به لفصل الخصومات إن وُجدت ، إن هذا بمثابة تدبيرٍ وقائي لصيانة اعتبار الإنسان المسلم المرتكز على التزامه الدائم بالعدل والتقوى في كل شئون الحياة، بحيث يُبرئ ذمته أمام الله ونحو خلقه كذلك عن طريق تأديته لما قد يتوجب عليه من حقوقٍ وفق الشروط المسجلة في الوثيقة ، المسلمون شهداء دين الله في أرضه، فكما أنه لا يجوز للمسلم أبداً أن يحاول كتمان كلمات الله عن علمٍ ودرايةٍ، كذلك لا ينبغي لأحدٍ أن يكتم ما عنده من شهادةٍ بالنسبة لقضيةٍ من القضايا البشرية، إن الذي يكتم الشهادة يُربّي في داخله عقليةً إجراميةً آثمةً، ويتقاعس بالتالي عن تمثيل الدور الإيجابي الذي كان بإمكانه أن يُمثله في محاولة التصفية العادلة للقضية المناقشة ، وذلك لأنه رُكّب في ضمير الإنسان أن يبادر باعتراف حقٍ، على مرأىً ومسمعٍ من الناس، فيما إذا ظهر له أنه عين الحق، وأن يُعلن بنفس الصراحة بكون شيءٍ ما باطلاً، فيما إذا ظهر له أنه غير الحق، فإن الشخص الذي يُخرس لسانه في مثل هذه الحالة، دون أن يرفع عقيرته بإحقاق الحق، وإبطال الباطل، فهو مجرم جعل من نفسه شاهداً على جريمته.

﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ

رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

غُفْرَانَكَ: نسألك مغفرتك.

وُسْعَهَا: طاقتها وما تقدر عليه .

إِصْراً: عبئا ثقيلا، وهو التكاليف الشاقة.

لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ: لا قدرة لنا على القيام به.

كل شيءٍ في هذا الكون تحت سيطرة الله عز وجل ، فمن الذرة إلى المجرة، كل ذلك خاضع خضوعاً مطلقاً للنظام الإلهي المحكم، فليس بوسع أحد هذه الموجودات أن يتخلف أو يحيد قيد شعرةٍ عن ذات الطريق التي رسمها الله جل شأنه لسيره .

غير أن الإنسان هو الكائن الاستثنائي الوحيد - من بين المخلوقات الأخرى - الذي يجد نفسه في وضع المتصرف المختار؛ فيتمتع بحريةٍ كاملةٍ لاختيار أي طريقٍ شاء، من بين الطرق الكثيرة المختلفة في مسيرة حياته، إلا أن حرية الإنسان هذه ليست مطلقةٍ بل مُنحت له من أجل الابتلاء والامتحان، ولفترةٍ محدودةٍ ؛ إذ أن الإنسان مُطالَب بأن يخضع لله في حياته العملية كبقية أجزاء الكون المحيط به، فالحياة المنضبطة التي تحكم بقية المخلوقات قسراً، يجب على الإنسان أن يختارها بعينها على أساسٍ من إرادته.

وينبغي للإنسان ألا ينخدع بالوضع الظاهري الذي تجري عليه الآن شئون هذا الكون بأن يظن أنه حر طليق غير مسئول، يفعل ما يشاء، وكيف يشاء، وأنه ليس هنالك من رقيبٍ عليه ، الحقيقة أن الإنسان تحت الرقابة الدائمة لمالك الكون العظيم ولا يزال يرصد ويُحصي عليه كل ما يصدر عنه من قولٍ وفعلٍ؛ مهما كان ذلك صغيراً أو

كبيراً، سراً كان أو علانيةً.

أيّ إنسانٍ مطلوب عند الله سبحانه وتعالى ؟

إنه ذلك الإنسان صاحب الإيمان والطاعة، والمقصود من الإيمان الاستسلام الفكري أو الشعوري لله، والمراد بالطاعة : الاستسلام العملي لله تعالى.

إن المطلوب الأول والأساسي من الإنسان - من الناحية الشعورية - أن يتخذ الله إلهاً خالقاً ومالكاً لوجوده، وأن يكون الله ملء كيانه النفسى الداخلى، وأن يكون - ثانياً - قد أدرك الحقيقة القائلة بأن نظام الكون البديع ليس مجرد نظامٍ آليٍ ميتٍ، بل إنه نظام حي ذو معنىً وهدف معينٍ، يسيّره الله جل شأنه ويصرف شئونه بواسطة عُمّاله المطيعين له ، وأن يكون - ثالثاً - قد عرف من بين عباد الله الأخيار الذين اصطفاهم الله سبحانه وتعالى لإبلاغ رسالته إلى البشر، وأن يكون - رابعاً - قد جعل من الكتاب الذي أنزله الله لهداية البشر، مقوماً أساسياً لأفكاره وخيالاته، وأن يأخذ - خامساً - في النظر إلى أمر النبوة والرسالة السماوية؛ لأنه واقع مستمر متسلسل على امتداد التاريخ البشري بأكمله ، وبعد تمام ترسيخ عناصر الإيمان هذه، في أعماق قلبه ودماغه، عليه أن يقوم - أخيراً - بترجمتها إلى نموذجٍ عمليٍ حيٍ ملموسٍ في سلوكه اليومي، وفي حياته العملية كلها.

ثم يجب ألا يكون هذا الإيمان وهذه الطاعة عنده بمثابة رسمٍ ظاهريٍ فارغٍ أو قضيةٍ شكليةٍ جامدةٍ، بل لابد من أن يكون لكليهما أثر مباشر فعال على شخصيته المعنوية، بحيثُ يذيب روحه، ويصيب كيانه النفسي بهزةٍ عنيفةٍ تجعله يتضرع إلى الله، وينصهر وجوده كله في بوتقة الذكر الإلهي، وتصبح حياته برمتها تحت رحمة الله .